الواجبات الاجتماعية

الجماعة والتفرقة

لكل واحد من البشر ثلاثة بيوت أو ثلاث عائلات :

(عائلة صغرى) وهى المؤلفة من أهله وعياله

و (عائلة وسطى) وهى المؤلفة من اخوته في الدين أو الوطن .

و (عائلة كبرى) وهى المؤلفة من إخوته في الانسانية . وقد أتممنا الكلام في الفصول السابقة على العائلة الصغرى ومايجب لها فلننتقل الى الكلام على (العائلة الوسطى) أو (العائلة الوطنية) وذكر الواجبات المطالب بها كلُّ واحد من أبنائها نحوها . وهذه العائلة أيضاً قلّما يتفق أن تكون مركبة من طائفة واحدةٍ ذاتِ ملّةٍ واحدة . وإنما هى في الغالب مؤلفةٌ من عائلات أو طوائف متعددة . ذات مِلَل وأديان مختلفة . ولكن هذا لايمنع أن تسمى تلك الطوائف أمةً واحدة أو عائلة واحدة مادام وطنهم واحداً ، ولغتهم واحدة ، ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة . فمهما فرّق الدينُ والمذهبُ بينهم فإن الوحدَات الاخرى تجمعهم ، وتضمّ شتاتهم . فما نذكره في الفصول التالية من انَّ الأنسان مكلف بواجبات اجتماعية تجاه غيره لانريد بذلك الغير أبناء دينه والمشاركين له في معتقده فقط ، وإنما نريد كل مشاركيه في الوطن ومصالحه السياسية والاقتصادية من أيّة مِلّةٍ كانوا .

والاسلام دين خاصٌ بالمسلمين من حيث العقائد والعشائر وطرُق التعبّد أما من حيث أحكامه السياسية والادارية والمدنية وتعاليمه الاجتماعية والاخلاقية

والأديـة فهو دينٌ عامّ يقبل أن يدخـل تحت أوامره ونواهيه المذكورة أبناءُ ملته وسائر أبناءِ الطوائف الأخرى المختلطين بهم، والمشاركين لهم في وطنيّتهم، فهو إذا أمرَ بوجوب الوفاق والتحابّ والامانة والعَدْل والرحمة والصَّدَقة وفعْل الخير وتَرْك الحسد والتجسّس وسائر الواجبات الاجتماعية ـ لايريد بذلك أتباعه المسلمين وحدهم لأن المسألة ليست مسألة صلاةٍ وتيمّم واستقبال قبلة ، ولا صوم واعتكاف وطواف حول الكعبة . وإنما هو يريد (أى الاسلام) المسلمين ومن التفّ بهم عَهْداً ووطناً وحكومةً ومصلحة : فَمِنْ أولى تلك الواجبات الاجتماعية التى أمرَ بهـا الإسلامُ (الجماعة والتفرقة) أى وجوب الاندماج في الجماعة الكبرى وتجنّب الافتراق عنهـا . فاذا كانت القرائن تدل على أن الخطاب متعلّق بترك التفرقة في العقائد والشعائر كان المخاطبون فيه جماعة المسلمين . وإن كان الخطاب متعلّقاً بمصالح الوطن السياسية والأدارية والاجتماعية والاقتصادية كان المخاطبون المسلمين وإخوانهم من أبنـاء الملل الأخرى المشاركين لهم في تلك المصالح والمرافق . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجماعةُ رَحمة ، والفرقةُ عَذاب ﴾

أي اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمةٌ وتفرّقهم شيَعاً فيها عذاب . أو المعنى أن اجتماع المسلمين ومن شاركهم في المصالح الوطنية على حفظ هذه المصالح رحمةٌ وتفرّقهم فيها أحْزابا عذاب . ومثل هذا الحديث أحاديث أُخر : منهـا قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ فَرَّقَ فَلَيْسَ مِنَّا ﴾

﴿ يدُ اللهِ على الجماعة ، وإنما يأكلُ الذئبُ مِنَ الغَنَم القاصِية ﴾

(يد الله) أي نعمته تعالى وبَرَكته على أبنـاء الوطن الواحد إذا كانوا جماعةً واحدة مُتضامنه على حفظ الحوزه ، وصيانة المصلحة ـ أو على أبناء الدين

الواحد اذا كانوا جماعة واحدة فى الوحدة المذهبيــة لاتفرّق فيهم ولا انقسام . ثم قال انّ الذى ينفرد عن الجماعة ـ هذه أو تلك ـ يُصبح كالشاةِ القاصية (أي البعيــدة) عن جماعة القطيع لاتلبَثُ أن يأكلها الذئب . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لاتختلفوُا : فإنّ مَنْ كان قبلَكم اختلفُوا فهلكوا ﴾

يُحيلنا الشارع على أمم التاريخ التى كانت قبلنا وقد اختلفتْ وتفرّقت كلمتها فهلَكَتْ وبادتْ وأُديلَ منها لنعتبر بها ، ونزدجر عن مثل نعلها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إثنانِ خيْرٌ مِن واحدٍ ،وثلاثةٌ خيرٌ من اثنين ، وأرْبعةٌ خيرٌ مِن ثلاثة . فعليكم بالجماعة : فإنّ اللهَ لنْ يَجمعَ أُمّتي إلا على هُدًى ﴾

هذه الأحاديث تُرشد الى أن استقرار الحقّ والصواب يكون في الفئة التى زاد عددها على اختها ولو بواحد . ويُشبه أن يكون قد استرشد بهذه الأحاديث الأمم المتمدنة : فانهم في مجالسهم البرلمانية يرون وجوب العمل بقول الفريق الذى يزيد عــدده على عدد الفريق الآخر ولو بصوت واحــد — على أن هذه الاحاديث التى تعتبر الحقّ فى جانب الكثرة إنما تعتمد الاعمّ الأغلب من جهة كما أنها من جهةٍ ثانية تُراعي حال من لم يقدر على تمييز الحق من الباطل بنفسه فمثلُ هذا ينبغي له أن ينضم الى السواد الأعظم . ويُغلّب الثقة به . أما اذا كان للمرء فكرٌ ثاقب وقلبٌ مخلص خالٍ من الشوائب ، ورأى الحق في جانب الاقلّية فلا عليه أن ينضم اليها ويُعوّل في الامر عليها . وينافح بكل قوته دونها حتى يهلك من هلك عن بينة ، ويحيي من حيّ عن بينة . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لاتزالُ طائفةٌ من أمّتي ظاهرينَ على الحقّ لايَضرُّهم مَنْ خالفَهُم حتى

يأتيَ أمرُ الله ﴾

يؤيد ماقلنا من أن الاقلية يكون في جانبها الحق أحياناً

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمنونَ كرَجُلٍ واحد : إنِ اشْتَكى رأسُهُ اشتكى كلُّهُ ، وإنِ اشتكى عَينَهُ اشتكى كلُّه ﴾

يعنى أنهم من شدة التحامهم وقوة تضامنهم يُصبح كلُّ واحدٍ منهم بالنسبة الى مجموعهم ككل عضو بالنسبة الى مجموع الجسد : فإذا نزل بواحدٍ منهم مكروهٌ شعرَ به كلهم على السواء وعملوا جميعاً على إزالته . كما يُسرع الجسد كلُّه الى إزالة ماينزل بأحد أعضائه من وَجَع أو ألم

ومن آيات القرآن فى الحضّ على الوحدةِ قولهُ تعالى :

﴿ واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفَرَّقُوا ﴾

﴿ ولا تَنازَعوا فتَفْشَلوا وتَذْهَبَ ريحُكم ﴾

(ريحكم) قوتكم وصولتكم : ولا ريب أنَّ اتحاد أبناء الامة واتّفاق كلمتهم من أكبر العوامل في ثبات أمرهم . وبقاء دولتهم . والشواهدُ على ذلك لا يحصيها العدّ . والاممُ التي ذهب تفرُّقُ الكلمة بعزّها وسلطانها قريبة تكادُ تُلمس باليد . ومن أقوال الأقدمين « كلُّ بيتٍ ينقسم على نفسه يخرب »

وكما حضَّ الشرعُ الاسلامي على اتفاق الكلمة أرشدَ الى رأب الصَّدْع وإصلاح ذات البين اذا اعترى الروابطَ القوميّة وَهْنٌ أو ضعف . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أفْضَلُ الصَّدَقَةِ إصلاحُ ذاتِ البَيْن . ﴾

﴿ ما عَمِلَ ابنُ آدمَ شيئاً أفضلَ من إصلاحِ ذاتِ البَيْن ﴾

وكان المسلمون في سالف عهدهم يتأدَّبون بأدب القرآن في توحيد كلمتهم .

وطاعة أميرهم حتى رَوَى الحَسَنُ البصريّ أن الرجل منهم كان إذا عرضت له حاجة وأميره يخطب لم يذهب من دون أن يستأذنه : فيقوم ويمسك بأنفه مشيراً الى أنه أصابه رُعاف ويريد الوضوء فيشير اليه أميره بالخروج واذ ذاك يخرج . وعملُهم هذا تأدّب بقوله تعالى :

﴿إنما المؤمنونَ الذينَ آمنوا باللهِ ورَسُولِهِ وإذا كانُوا معَهُ على أمْرٍ جَامعٍ لم يَذهبوا حتى يَستأذنوه﴾

(أمر جامع) أي شأن من الشؤون الجامعة العامّة كحربٍ حضرت ، أو خطبـة تُليت ، أو مشورة اديرت . قال الحسنُ : فاتفق أن رجلاً مَلَّ الحرب والاغترابَ عن أهله فأحبَّ الرجوعَ اليهم . فقام الى أميره (هرِم بن حيّان) وهو يخطب ، فأخذ بأنفه حسب العادة مستأذناً بالانصراف فأذن له . فانصرف ولـكن الى بلده وعشيرته . فأقام فيهم أياماً ثم رجع فسأله أميره :

— أين كنت ؟ ؟

— في أهلي .

— أبإذنٍ ذهبت ؟ ؟

— نعم : قمتُ اليكَ وأنتَ تخطب فأخذتُ بأنفي فأشرتَ اليّ أن اذهب . فذهبت .

— أفاتّخذتَ هذا دَغَلاً وخديعة ؟ اللهم أخّر رجال السوء الى زمن السوء

رَأى (هرم) أنّ زمنهم ليس زمن سوءٍ وأنّ ما عمله هذا الجندي من مخادعة أميره لا ينبغي أن يقع في ذلك الزمن . فدعا الله أن يؤخّره هو وأمثاله المخادعين الى أزمان السوء الآتية .

ومحصل القول أنّ من الواجبات الاجتماعية على كل واحد من أبناء الامّة أن يتمسّك بعُرى الوحدة الوطنية فلا يَفْصمها . ويحافظ على كعبة استقلال قومه

فلا يهدمها . وليعمل جهده على إصلاح ذات البين . كيلا يؤدّي بهم النزاع الى البلاء والحَيْن ووَطَنٌ كوطننا مؤلّف من جماعاتٍ وملٍل مختلفة لا يمكن نهوضُهُ ونجاحه مالم تتّفق طوائفه . ولا يتّفقون مالم تكن كلُّ طائفةٍ منهم متّفقةً في نفسها . غيرَ منقسمةٍ على ذاتها . واذا وقع شقاق أو نزاع في طائفةٍ من طوائف الوطن لا تضرُّ نفسها فقط بل يتعدّى أثره الى أخواتها ثم الى الوطن نفسه والى مجموع مصالحه : فكان من الخير للطوائف الذين يتألف منهم الوطن الواحد أنْ يحرصوا على توثيق روابط الألفة بينهم من طريق توثيقها بين أبناء كل طائفةٍ منهم . وان النصوص الاسلاميَّة الآمرة بالاتّفاق ، الناهية عن الافتراق ، لاتؤثر أثرَهَا المطلوب مالم يوجَّه فيها الخطاب الى مجموعِ أبناء الوطن : مسلمين وغير مسلمين ، فان في اتفاقهم وجمع كلمتهم الخيرَ لهم أجمعين

التعاون والتحاب

بحثُ (الجماعة والتفرقة) السابقُ منظورٌ فيه الى تعاون الامة من حيثُ إنّ فيها طوائفَ مذهبيّةً وأحزَابًا سياسيّة يُخشى أن يؤدّي النطاحُ بينها والنزاع في مصالحها العامّة الى اضْطِراب الأمر ، وانتكاث الفتل ، وذهابِ الملك جملةً واحدة . اما بحثُ (التعاونِ والتحابّ) هذا فمنظور فيه الى تعاون الامة باعتبار كل فردٍ من أفرادها إزاء قريبه وجاره وصديقه ومعامله : فيُخلص في حبه ، ويَحْرِص على نفعه ، ويمدُّ اليه يدَ المعونة في حين ضائقته ونكبته . فيعيشون متوادّين متحابّين وعلى البر والعمل الصالح متساندين متعاونين . وقد عاب القرآنُ قوماً من الأشرار يمنعون الناس رفدهم ومعونتهم فقال تعالى :

﴿ ويَمْنَعونَ الماعُون ﴾

(الماعون) مشتق من المعونة . فالمعنى أنهم اذا سُئِلوا أيَّ ضربٍ من

ضروب التعاون والمساعدة أبوا وامتنعوا . وخصّ بعضُ العلماء (الماعون) بما يعارُ عادةً من أمتعة البيت ومرافقه كالقِدر

ونُصوصُ الشريعة الواردة في معنى (التعاون والتحابّ) عامة شاملة لكل واحد من ابناء الامة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ما دامت مصالحهم مشتركةً ، ومراميهم متّحدة . والإسلامُ بطبيعته يحرِصُ على هذه المصالح والمقاصد . وهو يأمر بالتحابّ والتعاون بين جميع المواطنين المشتركين فيها . كيلا يؤدي تواكلهم وتباغضهم الى ضياعها وفسادها . أو الى النكد الدائم ، والشقاء الملازم . أمّا تخصيصُ المسلمين او المؤمنين أحياناً بالذكر في بعض النصوص فلأنهم كانوا المخاطبين بهذه النصوص حين ورودها أو لأنهم أربابُ الواقعة التي وردَ النص بشأنها . فلا يُفهم منه أنّ غيرهم من أبناء الملل الاخرى غير داخلين في عموم حكمها المتعلّق بالمصالح العامة ، والمنافع المشتركة . فمثال النصّ المطلق العامّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الخلْقُ كلُّهم عِيالُ اللهِ وأحبُّهم إلى اللهِ أنفعُهم لعِيالهِ ﴾

فهل يريد الشارع بالعيال المسلمين وحدهم بعد قوله (الخلق كلهم) الصّريح في أن مراده كلُّ فردٍ من بني آدم بل كل فردٍ منهم ومن المجموعات أيضاً : فانها مخلوقةٌ له تعالى يأمرُ الشارع بالرفق بها كما سيأتي في بابها الخاصّ : فالاسلام إذاً يحُضّ كلّ فردٍ من الخلق على كل فرد من الخلق . وقرّر أنّ منزلة المرء من ربّه تكون على مقدار ما يُوصل من النفع والخير الى البشر . وفي معنى هذا الحديث أحاديث اخرى . منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ الناسِ أنفعُهم للناس ﴾

﴿ رأسُ العقلِ بعدَ الايمانِ بالله التحبُّبُ الى الناسِ ، واصطناعُ الخيرِ الى كلّ برٍّ وفاجر ﴾

ومن كلام أمير المؤمنين في هـذا المعنى : « قلوبُ الرّجالِ وَحْشية فمن تألّفها أقبلت عليه » وقال أيضاً : « البشاشةُ حِبالُ المودّة والاحتمال قبر العيوب » وقال : « أعْجزُ الناسِ من عجز عن اكتسابِ الإخوان . وأعجز منه من ضيّعَ من ظفرِ به منهم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تباغَضوا ولا تدَابَرُوا ولا تنَافَسوا وكونوا عِبادَ الله إخوانا ﴾

﴿ مَنْ عاملَ الناسَ : فلم يَظلِمْهم ، وحدّثهم : فلم يكذِبْهم ، ووَعَدَهم : فلم يُخلِفْهمْ ، فهو ممّنْ كَمُلَتْ مروءَته ، وظَهرتْ عدالتُه ، ووَجَبَتْ أخوّتُه ﴾

﴿ الانسانُ أخو الانسان أحبَّ أمْ كرِهَ ﴾

ومثّلَ بعضُ الحكماء لذلك فقالَ : أمْسَى عليَّ المساءُ في الصحراءِ فلاح لي من بُعْدٍ شبحٌ أسودُ على رأس رابيةٍ فذُعِرْتُ منه ، ولما أقبلتُ نحوه وجدتُهُ إنساناً ، ولما صرتُ بجانبه وجدتُهُ أخي ، وهكذا البشر يتعجّلون في بُغْض بعضهم بعضاً وهم لو فكّروا لعلموا أنهم إخوة يستحقّون التحابَّ بدل التباغض . والتصافيَ مكان التحاقد .

رويدكُمُو ، فالدهرُ فيه كفايةٌ لتفريق ذات البين فانتظروا الدهرا

أمّا الأحاديث التي خصّت المسلمين بالذكر للاعتبار الذي ذكرناه آنفاً فمثلُ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اعزِلوا الأذَى عن طريق المسلمين ﴾

﴿ أفضلُ الأعمال أن تُدخِلَ على أخيكَ المؤمنِ سُروراً أو تقضي عنه دينا ﴾

ولا دليل في الشرع الإسلاميّ ينهى عن معاملة غير المسلمين بغير ما ذُكر من مكارم الأخلاق بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق ﴿ الخَلقُ كلهم عيالُ الله وأحبُّهم الى الله أنفعهُم لعياله ﴾ وبعد قوله :

﴿ لا ضَررَ ولا ضِرارَ في الاسلام ﴾

﴿ المؤمنُ آلِفٌ مألوفٌ . ولا خير فيمن لا يألفُ ولا يُؤلَف ﴾

وبالجملة فالمسلمُ باعتبار الدين الاسلامي هو منْ كان مثال الكمال الإنسانيّ في حُبّه لغيره من بني البشر . والمسارعةِ الى معونته ونفعه . وكفّ أذاه عنه وتحمُّل الأذى منه . ومسامحته على أذاه . بل مقابلته عليه بالبر والاحسان كما قال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ ويدْرَءُونَ بالْحَسَنَةِ السَّيِّئةَ ﴾

كماقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أفضلُ الفضائل : أنْ تَصِلَ من قطَعَكَ . وتُعطِيَ من حَرَمَك . وتَصْفَحَ عمَّنْ ظلَمَكَ ﴾

وإن قيام المسلم بهذا الواجب نحو أبناء نوعه هو فى الوقت نفسه من جملة قيامه بالواجب نحو خالقه تعالى . والاسلام لايسمح للمسلم أن يقف موقف صَوْلةٍ أو خصومةٍ بحالٍ من الأحوال مالم تتعرَّض حقوق بنى الانسان للضياع أو يلحق المصالح العامَّةأوالخاصةغبْنٌ أو فساد،فانه إذذاك يسمح بالمقاومةضمن شرائط العدْل والاعتدال . ومنْ تتبع الأحاديث الواردة عن الشارع بشأن حبّ الغير وايصال الخير اليه وجدها تربو على النصوص الواردة بشأن الواجبات الاجتماعية الأخرى . وإن مجرَّد سردها هنا يستوعب عدَّة صفحاتٍ . فلذلك نقتصر على ما هو آت :

﴿ ما تحابَّ اثنانِ في اللهِ إلا كان أحبُّهما الى اللهِ أشدَّهما حُبًّا لصاحبه ﴾

﴿ إصنع المعروف الى منْ هوأهلُه . وإلى غيرأهله : فانأصبْتَ أهلَه أصبْتَ أهله . وإن لم تُصبْ أهله كنتَ أنتَ أهلَه ﴾

﴿ إنَّ الله أمرني بمُداراةِ الناسِ كما أمرَني باقامةِ الفرائض ﴾

ويعنى بمدارةِ الناسِ التحبُّبَ اليهم.والمُسارعةَ الى فعل مايُرضيهم من دون

مَاذِلَّةٍ ولا مَعصية :

﴿ إنّ اللهَ يبغضُ المعَبِّسَ في وُجوه إخوانه ﴾

﴿ إن الله يُحبُّ إغاثة اللّهْفان ﴾

﴿إن اللهَ يحبُّ المُداومةَ على الإخاءِ القديم . فداوِمُوا عليه ﴾

﴿ بلُّوا أرْحامكم ولو بالسَّلام ﴾

(الأرحامُ) صلاتُ القُربى وأواصِرُ النَّسَب . يقول تعهَّدُوا ذوى قربا كم بالبرّ وصنوف الاحسان وإذا عجزتم عن ذلك فلا تعجزون عن كلمة سلام وترحيب توجّهونها اليهم . فتُنعشون القرابة بعد الخمود . وترطبونها بعد الجفاف والجمود . واستعمال (البَلّ) هنا من أجلّ الاستعارات وأبدعها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ تعَافَوْا تَسقط الضَّغائنُ من قلوبكم ﴾

(تعَافَوْا) من العفو أى سارعوا الى أن يعفُوَ بعضكم عن إساءة بعض : فان ذلك يُساعد على محو الأحقاد من صدوركم . وقال أيضاً :

﴿ لا يؤمنُ أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه ﴾

﴿ لا تدخلوا [1] الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنو [1] حتى تحابُّوا ﴾

﴿ لَأَنْ أُعينَ أخي المؤمنَ على حاجتِهِ أحَبُّ اليَّ من صِيام شَهرٍ واعتِكافِه ﴾

﴿ مَثَلُ المؤمنين في توَادِّهم وترَاحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسَد : اذا اشتكى منه عُضوٌ تدَاعَى لهسائرُ الجسَدِ بالسَهَر والحُمَّى ﴾

﴿ المؤمنَ للمؤمن كالبُنيانِ المرْصُوص يَشُدُّ بعضهُ بَعْضا ﴾

---

(١) حذفت النون من (لا تدخلوا) ولا (تؤمنوا) لغير ناصب ولاجازم تخفيفا على حد (كما تكونوا يولى عليكم)

﴿ مِنْ أفضل العمل إدخالُ السُّرور على المؤمنِ: تَقْضي عنه دَينا ، تَقْضِي له حاجة ، تُنَفِّسُ عنه كُرْبةً ﴾

﴿ مَنْ أصْبَحَ لا يَهْتَمُّ بالمسلمين فليسَ منهم ﴾

نزيد هنا فى بيان السبب فى تخصيص المسلمين بالذكر أن الزمن الذى قيلت فيه هذه الأحاديث الشريفة كان المسلمون فيه فئةً قليلةَ حديثةَ النشأة جديدة الاطوار . غريبةً فى العالم . يُحيط بها الأعداءُ من كل جانب . لاجرَم أنه لاينجيهم ويضمنُ سلامتهم سوى العمل بارشاد هذه الأحاديث . وهذا ناموس اجتماعى تُضطر الى العمل به كل فئةٍ حديثةِ النشأةِ جاءَتْ من التعاليم الدينية بما ينكره المطيفون بها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أرادَ أنْ تُجابَ دَعْوتُه وتُكْشَفَ كُرْبَتُه فليُفَرِّجْ عن مُعْسِرٍ ﴾

(المُعسرُ) المصاب بعُسْرٍ وضيق . وغَلَب استعماله فيمن ضاقت ذات يده عن وفاء ديونه وقضاء حاجات معيشته

﴿ إنّ أحَبَّكم إلى الله الذين يَأْلَفون ويُؤلَفون . وإنَّ أبغَضَكُم إلى الله المَشّاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الإخوان ﴾

لاجرَمَ أنّه بقدر مايكون لتوثيق علائق التحابّ بين الناس فى نظر الشارع من الشأن والاعتبار يكون للمجتريء على تقطيعها من المقت والاستنكار . والكلمةُ الجامعة فى الحضّ على التعاون والتساند هذه الآية الكريمة :

﴿ وتعاوَنوا على البرِّ والتَّقْوَى ، ولا تَعاوَنوا على الإثْمِ والعُدْوانِ ﴾

ومثلها في الحضّ على مبادلة عواطف الحب والتوصل اليه من أسهل طرقه قوله تعالى :

﴿ وإذا حُيِّيتُمْ بتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بأَحْسَنَ منها أوْ رُدُّوها ﴾

الأفضل أن تقابل صديقك من وسائل الألفة ودواعى التحابّ بأحسن

مما قابلكَ به . فان لم تفعل كان عليك أن تقابله بمثله على الأقل . ومما روي عن عرب الجاهلية في التعاون ومساعدة الغير قولُ حاتم الطائي :

(إذا كُنتَ رَبًّا للقلوصِ فلا تدَع
رَفيقكَ يمشي خلفَها غيرَ راكب)
(أنخْها فأَرْكِبْهُ : فإنْ حَمَلَتْكُما
فذاكَ ، وإن كان العِقابُ فعاقب)

أي وإن لم تحملكما معاً وكان اللازم أن تتعاقباها أي تتناوبا الركوبَ عليها فتركبها أنتَ مرةً وهو مرةً ـ فافعلا .

وأفضلُ من هذا مارواه البيهقي قال : شتَمَ رجلٌ ابنَ عباس فأجابه : أتشتِمُني وفيَّ ثلاثُ خصال: إني لأَسْمَعُ بالحاكم يعدلُ في حكمه فأُحِبُّهُ ، ولعلّي لا أُقاضَى اليه أبداً . وإني لأَسْمَعُ بالغيْث يُصيبُ البَلَدَ فأفرحُ به . ومالي به سائمةٌ ولا راعية . وإني لآتي على آيةٍ من كتاب الله فأودُّ أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم»

وقد أخذ أبو العلاء المعرّي المعنى الثاني من معاني ابن عباس فنظمه شعراً فقال :

(ولو أني حُبيتُ الخُلدَ فَرْداً
لما أحببتُ بالخلدِ انفرادا)
(فلاَ هَطَلَتْ عَلَيَّ ولا بأرضي
سحائبُ ليسَ تنتظم البلادا)

وليس من علامات التحابّ والتعاون بين الإخوان أنْ يرى أحدهم صديقه مقيماً على الشرّ والمنكر وفعل السوء فيتحَبَّبَ اليه بالسكوت عنه ، والإغضاء عليه أو استحسان مافعل أحيانًا . فإنَّ هذا النوع من المجاملة والتَّحبب

ممقوتٌ في الشرع . منهيٌ عنه في الكتاب العزيز . وقد وصف اقواما كانوا من الحبّ الكاذب على ماذكرنا فقال تعالى :

﴿ كانوا لا يَتناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فعلوه . لَبِئْسَ ما كانوا يفعلون ﴾

ولو كان هؤلاء يتحابُّون حقّ التحابّ لتلطّفَ أحدهم في نهي الآخر عن سوءِ فعلهِ . وعاتبهُ على ما أتى من مُنكر أمْرِهِ فيكون بذلك قد أعانه . وأخلص في الحبّ له.

(أنتَ عيني وليس منْ حقّ عيني
غَضُّ أجفانها على الأقذاءِ)

وفي الحديث الشريف :

﴿ أُنْصُرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً ﴾

ولما استشكلُوا نُصرة الأخ الظالم فسّرها لهم صلى الله عليه وآله وسلم بزجره عن ظلمه . فاذا انتهى وازدجر كنتَ قد نصرتَه على نفسه . وأنقذته من عاقبة إغوائها له. وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ نَصَرَ أخاه بظَهْرِ الغَيبِ نَصَرَهُ اللهُ في الدنيا والآخرة ﴾

والمعنى أنّ من رأى شتماً أو ظلماً أو تهمةً باطلة أُلصِقَتْ بصديقٍ له وصديقهُ غائبٌ غيرُ شاعر بالأمر فدافعَ عنه ، وصان كرامته ، وحفظ له حقه كان له ماذكر من الثواب :

﴿ المؤمنُ أخو المؤمنِ : لايَدَعُ نَصيحتَه على كلّ حال ﴾

وهناك أقوامٌ رَأَوْا من الوَرَع الاعتزال عن الناس فلا يسمعون سوءاً . ولا يَرَوْنَ منكراً . ولكن في عُزلتهم حرمانُ الناس من نصحهم ووعظهم وإرشادهم . لاسيّما اذا كان هؤلاء المعتزلون علماء مسموعي الكلمة . قادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن ثَمّ نوّه الشارع بشأن الذى يخالط

الناس ويُعاونهم وينفعهم ولو لحِقَهُ بعضُ الأذى منهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصْبِرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمنِ الذي لا يُخالط الناسَ ولا يصْبرُ على أذاهم ﴾

ثم إنَّ الشارع نهى عن منازعة الناس وكثرة اللّجاج في الخصومة معهم خَشْيَةَ أن يؤدي ذلك الى تسلسل العداوات ، فيسوء العيش ، وتتنغص الحياة. من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أبْغَضُ الرجالِ الى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِم ﴾

(الأَلَدُّ الخصِم) الشديد الخصومة . الصَّبُور على النزاع . الذي يظهر له وجهُ الحقّ مع خصمه فيتصامّ عنه . ويُثابر على مناصبته الى ماشاء الله .

ولم يُغفل الشارعُ أمراً متعلقاً بالحب والبغض جديراً بالعناية والاهتمام ذلك ما أشار اليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحْبِبْ حَبيبَكَ هَوْنًا ما ، عَسَى أن يكونَ بَغيضَكَ يَوماً ما . وأَبْغِضْ بغيضَكَ هَوْنًا ما ، عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما ﴾

(هونًا ما) أي بتؤدةٍ لا لجاج معها . ورفق لاطيشَ فيه . والمعنى إذا أحببتَ إنسانًا فلا تبالغ في حبه والثقة به الى حدّ التملق أو أن تُطْلِعَهُ على بواطن أسرارك فرُبما انقلب عليك عدوًّا . فكان أعرف بطرق مضرّتك . وكذلك اذا أبغضته لسبب صحيح شرعي لا تُبالغ في بغْضه والتشنيع عليه . وهتك أستاره وإذاعة أسراره . فقد يتفق أن يرجع الحالُ بينكما الى الحسنى والمصافاة فتخجل وتندم على ما كان فَرَط منك في حقه .

(المُزاح) ومما يساعد على استحكام عُرى التحابّ بين الإخوان وامتزاج قلوب بعضهم ببعض أن يكون لهم في مجالسهم شيء من اللهو واللعب المعتدلين

بحيث لايخرجون فيهما عن حدود المطايبة والمفاكهة والمزاح المحمود ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . وذكروا من مزاحه أشياء غاية في اللطف والصدق وإدخال المسرة على المخاطبين كالاطفال والنساء والعجائز . من ذلك قوله لغلام مات له طير فحزن عليه :

﴿ يا أبا عُمَيْر : مافَعَلَ النُّغَيْر ؟ ﴾

وقوله أيضاً لتلك المرأة التي شكت اليه شيئاً من أمر زوجها :

﴿ زَوْجُكِ الذي في عَيْنَيه بياضٌ ﴾

وإن في المزاح على هذه الصورة تفريجاً للكروب . وتَسْرِيةً عن القلوب . قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : « إنّ هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم » . والمرء الذي يتكلّفُ العُبوس وفرطَ الوقار في مجالس الناس ، أو يلتزم الجدّ في عامّة أحواله يمقتونه ويستثقلونه . بل ربما تجنّبوا مجلسه ، واستحلوا أحياناً غيبتُه . وممّا وردَ عن الشارع في الحضّ على الانتباه لهذا الأمر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أُلْهُوا والْعَبُوا فإني أكرهُ أنْ يُرَى في دينِكم غِلْظَة ﴾

(غلظة) جفاء وشِدّة تُنغّص العيش ، وتجعل الحياة مُرّة . ولكن على العاقل أن يتفطّنَ لما يُريده الشارع من اللّهو واللّعب ويحسن فهمهما ، وصورة استعمالهما ، فلا يتجاوزهما الى ما نهى اللهُ ورسوله عنه : مما فيه ضياعُ وقتٍ أو مال ، أو مَسُّ عِرْض أو كرامة ، أو تجديد عداوة أو قطيعة أو تفريطٌ بحقٍّ أو فريضة . وكلُّ ما في الأمر مثلاً أن يُرَوِّضَ الأصدقاء في مجالسِ لهوهم أبدانَهم بالألعاب . أو يُنْشدوا أناشيدَ لا فُحش فيها ولا سِباب . أو يتطارحوا من النّكات ما يُنعش الهِممَ ولا يخرج عن الصواب .

وحدودُ الاعتدال في المُزاحَةِ والمداعبة متعالِمَة مشهورة قلَّما يجهلها أحد ، ولكن طريقها عسير ، والوقوف عندها يحتاج الى عقلٍ كبير ، قال سعيد بن العاص لابنه « اعتدل في مزاحك ، فان الإفراط فيه يُذهب البهاء ، ويجرئ عليك السُّفهاء ، كما أنّ التقليل منه يُبعِدُ عنكَ المُوآنسين . ويوحش منك المصاحبين » ورُوي أنّ سيدنا صُهَيْباً رضي الله عنه كان يُعجبه أنْ يمزحَ فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أتأكلُ التمرَ وبك رَمَد ؟ ؟ ﴾

فأجابه إنّي أمضغُ على الناحية الأخرى يارسول الله فضحك صلى الله عليه وآله وسلم حتى بَدَتْ نواجذه الشريفة .

وقد يكون المراد باللّهو واللّعب في حديث (الهُوا والعبُو) إباحة إقامة المهرجانات والتقاليس[1] في أيام المواسم والأعياد والأفراح فيضرب الجواري على الدفوف ، ويلعب الفِتْيان بالحراب والسيوف . في نظير ذلك مما لا سوْءَ فيه ولا أذى . وَوردت به السنةُ والأخبار الصحيحة

الرحمة والشفقة

واجبُ الرحمة والشفقة ضربٌ من ضروب (التعاون والتحابّ) . يمارسه المرءُ إزاءَ العَجَزَة والضعفاءِ الذين لا يستطيعون حيلةً في دَرْءِ أذًى يلحقهم ، أو مكروهٍ ينزل بهم . وقد أشرنا في بعض الفصول الماضية الى أن الانبياءَ إنما بُعثوا لأجل هداية البشر الى الحق والعدل . ولما كان ضعفاؤهم مُعَرَّضين لضياع حقوقهم . ولحاق الظلم بهم من قِبَل الأقوياء — يُعلن الأنبياء

(١) جمع تقليس مصدر (قَلَّس) القوم اذا استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرب الدفوف والغناء وأصناف اللهو

(صلوات الله عليهم) في جملة ما يُعلنون من أركان دعوتهم ـ أمر العناية بهؤلاء الضعفاء والانتصار لهم ممن يُريد ظلمهم بل إنهم فوق ذلك يَعُدُّون أنفسهم منهم ولا يأنفون من الانتماء اليهم تطييباً لقلوبهم ، وحمايةً لهم من صولة الظالمين حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اللَّهُمَّ أمِتْني مِسْكيناً وأحْيِني مِسكيناً واحْشُرْني في زُمْرَةِ المساكين ﴾

وهذا الخلق الشريف أعني (الشفقة والرَّحمة) لا وطَنَ له ، ولا حدَّ ينتهي اليه . فالواجبُ أن يتعدَّى أثرُهُ الى كلّ مستضعَفٍ من الإنسان والحيوان كما علّمنا صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ في كلّ ذي كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ ﴾

(ورطوبةَ الكبد) كنايةٌ عن رطوبته بدم الحياة . وليس للانسان الرحيم أن يفخر بهذا الخُلُقِ (خُلُق الرحمة والشّفقة) فإن الحيوانات أيضاً تتراحمُ ويُواسي بعضها بعضا . وقد رُوي أنَّ طائفةً من علماء الأزهر كانوا يُفطِرون في مساءِ رمضانَ على سطحٍ بعض أروقة الجامع فغشيهم هِرٌّ فكانوا يُلقون اليه من طعامهم المرَّةَ بعد المرّة وهو في كلّ مرّةٍ يَغيبُ ثم لا يلبث أن يعود فرأيهم أمرُه وتبعوه وإذا به يُلقي ما يأخذُ من الطعام بين يدي سِنّور كبيرٍ أعمى لا يَدٍ في بعض الخَرَب . فوقف الشيوخ حيارى ، ومجَّدُوا الرَّبّ تعالى الذي رحم العالمين بإيجاد عاطفة الرحمة في نفوسهم ولولاها لأصبح الكونُ خرابا ، ولكانت الحياةُ فيه عذابا .

ومظاهر الرحمة بالضعفاء تختلف باختلاف هؤلاء الضعفاء وتنوّع أسباب ضعفهم وحاجتهم : فمنهم الخدم والخول الذين يكونون في البيوت يخدمون العائلات لقاءَ أجرٍ ، فالرحمةُ بهؤلاء ومعاملتهم بالحسنى من أوكد الواجبات بل إنّ وجوبها ممّا يلتحق بوجوب رحمة أفراد العائلة بعضهم لبعض . وقد نبّه

الشارع الى هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ما خَفَّفْتَ عن خادمك في عمله فهو أجرٌ لك في موازينك يوم القيامة ﴾

ورأى صلى الله عليه وآله وسلم أبا مسعودٍ الصحابيَّ رضي الله عنه يضرب غلاماً له فقال له :

﴿ اعلمْ يا أبا مسعود أنَّ الله أقدرُ عليك منك على هذا الغُلام ﴾

واغتاظت عائشةُ رضي اللهُ عنها من خادمٍ لها ثم رجعت الى نفسها فقالت :

« لله درُّ التقوى ما تركتْ لذي غيظٍ شفاء »

تُريد أنَّ التقوى ومخافة الله تحولُ بين المغتاظ وشفاء غيظه ممن غاظه . ووَرَدَ في المأثور « من خاف الله لم يَشْفِ غيظه » ويدخل تحت النصيحة النبويّة في حقّ الخدم والأجراء في البيوت ـ النصيحةُ بحقّ الصنّاع والعملة المستأجرين لأغراض أُخر . بل خصهم صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ أعْطُوا الأجيرَ أجْره . قبل أن يجفَّ عرَقُه ﴾

ومسألةُ (عُمّال المعامل) والمستأجرين في البيوت التجاريّة الكبرى من أكبر مشاكل العمرانَ الحديث : فإن هذا العمران إن كان حظرَ الاسترقاق الفرديّ فانه مهّد الطريق أمام طائفةٍ من أرباب رؤوس الأموال يحشرون الى معاملهم ألوفاً من إخوانهم في الانسانيّة فينقادون اليهم مسوقين بالحاجة والعوز ثم يأخذون في استغلالهم وتسخيرهم في خدمة منافعهم وتوفير ثروتهم لقاء أُجور يوميةٍ زهيدة يُمسكون بها رمقهم ورمق عيالهم . فالإسلام الذي جعل الرقيق والخادم أخاً او فرداً من أفراد العائلة لا يبخل برحمته وعطفه على (عُمّال) : (المعامل) ، فهو بالطبع يُرشد إلى مواساتهم ، وعدم تحميلهم فوقَ طاقتهم . وأن يكون لهم نصيب صالح من كسب أيديهم وثمرة أتعابهم . ولذلك قال : أعطوهم اجورهم من دون مطل ولا تسويف .

ومن الضعفاء الذين حضّ الاسلام على وجوب مواساتهم ومعاملتهم بالحسنى (أسْرى الحرب) وقد جاء في صفة طائفةٍ من الأبرار قوله تعالى :

﴿ ويُطْعِمُون الطّعامَ على حُبِّهِ مِسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾

وليس المراد بذكر الطعام أن يُقتصر من ضروب المواساة على إطعامهم . فإن غير الإطعام كالإطعام في الوجوب لكنه خصّ الطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ولأنّ الإطعام أهم ضروب الإحسان . إذ كان به قوام الأبدان كما لا يخفى .

والمراد بالأسير في الآية غيرُ المسلم لأن الأسارى وقت نزول الآية كانوا مشركين . وقال الحسن البصري: كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين ويقول له (أحْسن اليه) فيبقى عنده اليوم واليومين والثلاثة ، فيؤثرُهُ على نفسه . وكفى بهذا منقبة للقرآن ، وشهادةً على سُموّ آداب الاسلام ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك :

﴿ استوصُوا بالاسارَى خيراً ﴾

ومن الضعفاء الذين تجبُ على المرء الرحمةُ بهم (الأطفالُ الصغار) سواء أكانوا أطفاله ، أو اجانبَ عنه . ومن أجمل ما ورد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليس منّا مَنْ لم يَرحمْ صَغيرنَا ويُوقّرْ كبيرنا ، ويأمرْ بالمعروف وينهى (١) عن المنكر ﴾

أما ماورد بشأن رحمة الفقراء والمُستضعفين عامّةً فكثير . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) هكذا الرواية باثبات حرف العلة فى (ينهى) مع وجود الجازم وهى لغة لبعض العرب وعليها قول الشاعر : (اذا العجوز غضبت فطلّق * ولا ترضاها ولا تملق)

﴿ لكلّ شيءٍ مفتاحٌ ومفتاحُ الجنّة حُب المساكين والفقراء ﴾

﴿ الساعي على الأرْملةِ والمِسْكين كالمجاهِد في سبيل الله ﴾

(والسَّاعي عليهم) هو الذي يغدُو ويروح في قضاء حاجاتهم. وتهيئة مايلزم لهم من مسكن وكسوةٍ وطعام

﴿ لا تُطعمُوا المساكينَ ممّا لاتأكلون ﴾

أي لاتطعموهم مما تأنفون منه وتتقزّزُون، فإنكم بذلك تكونون كأنكم لم تعطُوهم شيئاً. وَوَصَفَ القرآنُ بعضَ الفجّار فقال:

﴿ إنَّه كانَ لايؤمنُ بالله العَظِيم، ولا يَحُضُّ على طَعَام المِسْكين ﴾

لم يذمّه على عدم إطعام المساكين بل على كونه لايَحُضُّ غيره منَ الأغنياء على إطعامهم، ومدّ يد الاسعاف اليهم. وفي هذا النصّ دلالةٌ على أنه يجب على أبناء الوطن أن يتداعوا الى العناية بفقرائهم، وتدارك الأسباب التى تخفّف البؤس عنهم. من مثل تأسيس ملاجىء لعجزتهم، ومستشفيات لمرضاهم، وكتاتيب لأطفالهم، وتخصيصُ الطعام بالذكر اتّفاقي كما مرّ، والاّ فانّ الشرع يحضّ على إيصال الخير اليهم بمختلف الوسائل، وإنّ حضَّ أبناءالوطن بعضهم بعضا على ماذكرنا من ضروب العناية بالفقراء والمساكين ـ قد يستلزم انقطاع أفرادٍ منهم لهذا العمل وتوفّرهم عليه، ومن هنا تنشأ (الجمعيَّات الخيريّة) و (جمعيّات البرّ والإحسان) و (جمعيّات التعاون). ومن أكبر مايُساعد على تأليف هذه الجمعيّات بينَ الاقوام المسلمين وجوبُ الزّكاة عليهم فإنها إذا أخرجت كما أنزلت كان منها رؤوس أموالٍ طائلة تُدير ملاجئَ ومستشفياتٍ وكتاتيب ومعاملَ خاصةً بالفقراء وأولادهم، وإذا أضفنا الى أموال الزكاة أموال الأوقاف وارتفاع[1] عقاراتها ممّا هو مُرْصدٌ لأعمال البرّ والاحسان

(١) ارتفاع العقارات هو ريعها ودخلها ونقول اليوم ايرادها

وضروب الخير واستُثْمِر كل ذلك بحسب أصول فنّ الاقتصاد الحديث ـ لا يبعدُ أن يحدث من وراء هذا جميعِهِ انقلابٌ عظيم في الطوائف الاسلامية وإصلاح كبير في هيآتهم الاجتماعية :

ومن الأحاديث التى حضّ الشارع فيها على الرحمة حضاً عاماً قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿الرّاحِمون يرحَمُهم الرّحمٰن ، إرحموا مَنْ في الأرض يرحَمْكمْ مَن في السماء﴾

﴿خاب عبدٌ وخسر : لم يجعل اللهُ تعالى في قلبه رحمةً للبشر﴾

﴿لا يَدْخلُ الجنةَ الا رحيم﴾

فهذه الأحاديث وأمثالها معها يتناول الخطابُ فيها كلّ فردٍ من أفراد الناس إزاء كل فردٍ من أفراد الناس ، لا إزاء أبناء دينه وملّته خاصةّ ، وهذا أمرٌ معروف من دين الاسلام بالضرورة ، ويُروى أن الامام الشعبيّ ألقى السّلام يوماً على وثنيّ قائلاً (السّلام عليكم ورحمة الله) فقيل له أتدعو له بالرحمة والرحمةُ استغفار ؟ ! « فأجابهم : أليْس في رحمة الله يعيش ؟ » !! ظَنّ القومُ أنّ طلب المسلم الرحمة لغير أبناء دينه لا يجوز لاعتبارات قامت في نفوسهم لم يُدركها عقلُ الشعبي : ذلك الامامُ الكبير ، وإنما أدرك بعقله ورأى بعيني رأسه أنّ البَشر كافةّ مؤمنهم وجاحدهم يتقلّبُون في صنُوفٍ من نعم ربّهم ، وضروبٍ من رحمة خالقهم ، يغْدِقُها عليهم كلّ صباح ومساء ليحملهم بذلك على التفكّر في عظمته ، ثم الرجوع الى صحيح عبادته ، أو يفعل ذلك تعالى لحكم وأسرار هو وحده سبحانه يعلمها ، فما معنى غضب الشعبيّ إذاً عليهم بل ماعساهُ يكون مبلغ تأثير تركه طلب الرحمة لهم سوى التدخل في أسرار القدر واستبطان البُغض لعيال الله الذين أمر بحبّهم ، وإرادة الخير لهم

الرفق بالحيوان

أشرنا في بحث (الرحمة والشفقة) الى أنّ الحيوان يدخل في عموم من تجبُ رحمته والرفق به ، لأنه ذو كَبدٍ رطْبةٍ كما مرّ في الحديث ، ولأنّ في القسوة على الحيوان إيلاماً له ، وهو ذو نفس حيَّةٍ تُحِسّ وتشعر بالألم ، فلم يكن ثمّ فرق بينه وبين الانسان من هذا القبيل سوى أنّ الانسان قد يتظلَّم أو يعبّر بنطقه عن شُعوره بالألم مستغيثاً مسترحماً فيرثى له مؤذيه ، ويكفُّ عنه ، أما الحيوان الأعجم المسكين فليست له وسيلة تحميه من أَذى الانسان ، وتشفع به لديه سوى شعور الانسان نفسه بأنه ارتكب ظلما ، واكتسب إثما ، فمنْ لنا بإنعاش هذا الشعور الشريف فى نفس الانسان المؤذي فيتأدَّب بآداب الدين . ويَشفق على أخيه فى الطين .

والحيوانُ الصائل أو المؤذي يُقتلُ دفعاً لأذاه وصولته. أمّا غيره فلا يجوز التعرّض له بحالٍ بل إنّ منه ما هو نافع للإنسان كالبُوم والخفّاش والغُراب ، فانها تتبَّع الحشرات والديدان فى الارض الزراعيَّة فتأكلها . وتقطع أثرها . وبذلك ينجُو الزرّاع من شرّها . ومع هذا ترى هؤلاء الزرّاع يتتبّعونها ضربا وقتلا ، ويُوسعونها سبّاً وشتما ، ويجْزونها على صنيعها كما جُوزي سنمّار

والحيوانات ذاتُ الدرّ والنَّسل قلَّما يؤذيها أربابها ومثلها حيوانات الركوب سوى المُسخَّرة فى نقل الأثقال . فالويلُ لها إذا وقعتْ بيد منْ لا خلاق لهم من العامة وذوي الغلظة والجفاء ، فإنهم يجورون عليها ، ولا يرهبون الله فيها . فصار من الواجب على رجال الضبط والأمن أن لا يرهبُوا الله فيهم تأديباً لهم وزجرا .

والكلابُ والقطط وصغارُ الطير مُعرَّضة لصَوْلة الصبْيان وعُرامهم (١)

---

(١) اي شرهم وأذاهم

فعلى أوليائهم أن يمنعوهم من ذلك . ويعوّدوهم الرفق بهذه الدواجن . والعطف عليها . ويشرحوا لهم ما لها من الفوائد فى خدمة الناس . وقد أوصى الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بالهرّة لكونها تطوف بالليل فى البيوت وحول النائمين . فتقتل الحشرات المؤذية ، وتلتقط الفضلات المنتنة . وقد أصغى (١) يوماً بيده الشريفة الإناء الى هرّة بيته يسقيها ويروي عطشها . فدلّ بذلك على أن سؤرها طاهرٌ وان كانت تأكل النجاسات أحياناً . وقد نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن إيذاء هذه العجماوات وتوعّد عليه في جملة أحاديث : وأشهر الأحاديث في وجوب الرفق بالحيوان قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ في كلّ ذي كبدٍ حرّى أجرٌ ﴾

(وحرّى) مؤنث حرّان أى شديدة العطش . ويروى (رطْبةٍ) كما فى الرّواية السابقة . ومن الأحاديث في ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ منْ رحم ولو ذبيحة عُصفُورٍ رحمه الله يوم القيامة ﴾

﴿ اتّقُوا الله في البهائم المُعْجمة : فاركبوها صالحة وكُلوها صالحة ﴾

قوله (المعجمة) أى العجماء التى لا تنطق ولا تقدر أن تُفصح عمّا في نفسها وقوله : (اركبُوها صالحة) اى اعلفُوها وأريحُوها حتى إذا ركبتموها وجدتمُوها صالحة للركوب . وجديرة أن توصلكم الى حيث تقصدُون ، وقوله (كلوها صالحة) أي أحسنوا خِدْمتها وتَعهّدها بالعلف والريّ وخصب المراعي فتسمَن وتصلح للأكل . وقال أيضاً:

﴿ إذا ركِبْتُم الدّوابّ فأعْطُوها حقّها من المنازلِ ولا تكُونوا عليها شياطين ﴾

اي انزلوا عنها وأريحوها فى الطريق المرّة بعد المرّة . ولا تلْزَموا ظهورها

---

(١) اى أمال

حتى تتعبوها وتنهكوا قوتها فتكونوا شياطين . وكلُّ مؤذ شيطان .

وأبلغُ ماجاء في الحضّ على الرفق بهذه البهائم ، وعرفان قيمتها ، وشكر الله على الإنعام بها : من باب وصف منافعها ، وتعديد خدماتها ـ قولهُ تعالى في كتابه الكريم :

﴿ والأنعامَ خلَقَها لكُم ، فيها دِفءٌ ومَنافِعُ ومنها تأكُلون . ولكُم فيها جمالٌ حين تُريحُونَ وحينَ تسْرَحُون . وتحمِلُ أثقالَكُم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشِقِّ الأنفُس إنَّ ربَّكم لرؤوفٌ رحيم . والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبُوها وزينةً ويخلُق ما لاتعلمون . ﴾

أما إذاأردنا ذبح حيوان أو اضطُررنا إلى قتله ودفع أذاه فقد علمنا الشارع كيف نفعل فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿إنَّ اللهَ كتبَ الإحسان على كلِّ شيء . فإذا قتلْتم فأحْسنُوا القتْلة . وإذا ذبحْتُم فأحسنوا الذِّبحَة وليحِدَّ أحدُكُم شفْرتَه وليُرِحْ ذَبيحتَه﴾

فالشارع يُكلفنا الإحسان وتوخّي الخير حتّى في تخفيف الألم عما نريد قتلَهُ أو ذبحهُ من الحيوان

فالكلب العقور مثلاً يُجْهَزُ عليه بآلةٍ ماضية لاتُعَذبهُ والحيوان المأكول كذلك بعد أن نريحه ونسقيهُ ونشحذ السكين شحذاً ماضياً ، ولا نريه اياها .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لعن اللهُ منْ مثَّل بالحيوان ﴾

والتمثيل به أن تقطع اعضاءه عُضواً عُضواً تعذيباً له وتشفياً منه ، او تسلّياً وتفكّهاً أحياناً . وفى الحديث :

﴿ نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن التَّحْريش بين البهائم ﴾

وهذا كما تفعل العامّةُ في التحريش بين الديكة فتتواثب ، والكباش

فتتناطح ، والثيران فتتصارع ، والكلاب فتتهارش ، ثم يسيلُ دمُها ، وتنبهر أنفاسها وقد تُدركها منيّتها . ولا فائدةَ للانسان من وراءِ ذلك سوى الضحك والتسلية ، أو المباهاة الباطلة ، أو جمع مال السُحْت من النظّارة [1]

وجاء في الحديث أيضاً بشأن الرفق بالحيوان :

﴿ نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذبْح ذوات الدَّرّ ﴾

أي ينبغي ألا يعجّل في ذبح اناث المواشي ذوات اللّبن استبقاءً لها فيطُولُ زمن الانتفاع بدَرّها ويشْبَعُ منها ابنُها

الصدقة والزكاة

قلنا في مقدّمة الكتاب : إنّ الأخلاق بآثارها لا بأخبارها . ولا بد أنّ القارىء انتبه في بحث (الرحمة والشفقة) الى أن مجرّد تأثّر النفس من حالة الفقراء والرثاء لهم ، والتحزّن عليهم ، لا يفيدُهم شيئاً ، ولا يصحّ أن يُسمّى صاحبه رحيماً أو شفوقا مادام تأثُّرة وتحزُّنه لم يقترن بمواساته الفعلية لهم ، ثم إنّ ضروب هذه المواساة كثيرة . وأطيبُها ثمرا وأحسنها أثرا إعطاؤهم ما ينتفعون به من لبُوسٍ وغذاء ، وخاصّةً الدراهم والنقود التى هي الأداة القريبة في تحصيل أنواع اللّبُوس والغذاء والمرافق الأخرى : كالطبيب والدّواء ، وغاز التنوير وفحم الاستدفاء ، ومنْ ثمّ قال فقهاؤنا رضى الله عنهم « الدراهم للفقير أنفع . وبحاجاته المختلفة أشفع »

و (الصّدقةُ) كلُّ مال يُعْطى للفقير على وجه التقرُّب الى الله ، وانتظار المكافأة منه تعالى وحده عليه ، والمرء مختارٌ شرعاً في إعطاء هذه الصدقة ، أما (الزّكاة) فصدقة خاصة فرضها الإسلام فرضاً لاهوادة فيه ، وقد عيّن قدرها

---

(١) (النظارة) بتشديد الظاء هم الذين نسميهم (متفرجين)

وزمنها ومصرفها وكيفيّة صرفها ، ولها أحكام وشرائط مبيَّنة في كُتب الفقه : فالزَّكاة صدقة طائفية أي خاصَّة بطائفة المسلمين ، أمّا الصَّدقة المطلقة فعالميَّة لا تختصُّ بملَّة ، وقد شرعها الإسلام للمسلمين في جملة ماشرع لهم من الواجبات الاجتماعيّة التي تساعد على تحسين حالتهم ، وتهدئة نفوس الفقراء من ثوران الحقد عليهم ، والطمع في أموالهم ، فتقلُّ الجرائم ، وتتوثق الروابط بين أبناء الوطن على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى قوله « سُوسُوا إيمانكم بالصَّدقة وحصِّنوا أموالكم بالزَّكاة » ومعنى سُوسُوه احفظُوه وحُوطوه بما ينمّيه ويقوّيه . وبقدر ماأوصى الإسلام الأغنياء بأن يعْطُوا الفقراء صدقاتهم أوصى هؤلاء الفقراء أيضاً بأنْ لايتصدَّوْا لأخذها ما لم يكونوا في حاجةٍ اليها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اليدُ العُلْيا خيرٌ من اليد السفْلىٰ ﴾

فنبَّه الفقير في هذا القول إلى وجوب العمل والسعي والاستغناء بالله عن الناس فلا يقف من الأغنياء موقف الاستعطاء والتسوُّل ، والاسلامُ وإن حضَّ أتباعه على التعاون في أعمالهم ومصالحهم ـ لكنَّه من جهةٍ ثانية أرشدهم الى أن يعمل كلٌّ منهم في تحصيل حاجاته بنفسه ، ولا يكون كلاًّ على غيره ، حتى إذا كان أحدهم على ظهر فرسه وسقط سَوْطُهُ من يده فلينزل اليه ولا يكلّف غيره مناولته إياه . كلُّ هذا غرساً للعزَّة فيهم ، وطبْعاً لنفوسهم بطابع العمل والاستقلال الشخصي وقد اختلفت حالةُ الحضارة ونواميس الاجتماع عما كانت عليه في زمن أسلافنا الذين كانوا يتصدَّقُون على الفقراء بطرائق وأساليب تعارفوا عليها فيما بينهم ، وقد رأى أهل هذا العصر أن يؤلّفوا (جمعيات خيريّة) تتناول فضول أموالْ الأغنياء بنظام ، ثم تُنفقها على الفقراء بنظام ، فكانت هذه الجمعيات نِعْمَتْ الواسطةُ بين الفريقين في مُلافاة المُشكل ، وتسديد الحساب . وقد قلَّ المتسوّلون

في البلاد التي كثُرت فيها هذه الجمعيَّات ، ولم يعودوا ينتشرون في الأزقَّة والشوارع كما هو شأنهم في البلاد التي لا جمعيَّات خيرية فيها ، ونتج عن وجود هذه الجمعيَّات أيضاً أنَّ الفقير القادر على الكسب رأى نفسه مضْطراً الى تحصيل قوته وقوت عياله من طريق سعيه الشخصي مادامت (الجمعيات الخيريَّة) لا تقيِّد اسمه في سجلِّ فقرائها العاجزين ، وما دام الأغنياء يُعرضُون عنه ويُحيلونه على تلك الجمعيَّات .

وقد صرَّح بعض علماء الاجتماع المعاصرين بما يأتي :

«إنَّ التصدّق على الفقراء بالدراهم يعوِّدهم البطالة والكسل ، ويثبط هممهم عن متابعة العمل ، ويميت في نفوسهم عاطفة الاستقلال الذاتي ، فلا تُعنْ أحداً منهم بدرهم ، واجعل كل مُروءتك في أن تهيِّئ لهم سبباً للمعيشة ليتمكّنُوا من مساعدة أنفسهم بأنفسهم ، وهذه الفكرةُ الاجتماعية وان لم يمكن تطبيقها في بلادنا بجملتها فإنه يمكننا أن نستفيد منها ونحذُو حذوها في بعض طرائقها : فنوجد للفقراء اسباباً للكسب وتحصيل المعيشة ، ونؤلّف (جمعيَّات خيْريَّة) تقوم بحسن الوساطة بين الأغنياء والفقراء ، ونَلحُّ على الأغنياء بتعريفهم واجبهم الشرعي والاجتماعيّ في امداد هذه الجمعيَّات بصدقاتهم ، وفرائض زكواتهم ، كما نغرس في قلوب الدَّهماء والفقراء حبَّ العمل وبغض التسوّل ، وأنه غير جائز في الإسلام الاَّ عند العجز التّام ، وقد مرَّ في هذا الفصل وبعض الفصول السابقة نصوصٌ شرعيَّة ، تساعد على انفاذ هذه الطرائق الاجتماعية ، وترْويج أمرها في بلادنا وبين أقوامنا ، وان لم نفعل تزدد البطالة والفقر فينا ، وتشتدّ القسوة في قلوب أغنيائنا ، والبغضُ والطمعُ في نفوس فقرائنا ، وبذلك تفسد أحوالنا ، ويختل نظام اجتماعنا ، ونصبح مضغةً في أفواه الطوائف الأُخرى المخالطة لنا ، أو النازلة بين أظهرنا . هذا وانَّ كثرة النصوص الدينيَّة الحاضَّة على الصَّدقة تضطرنا الى الاقتصار منها على بعضها . وأوَّلُ مانبَّه الشارع اليه أن وجوب

الصَّدقة انمَّا هو على الغنيّ المُوسر فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ الصَّدقة ما كان عن ظهْر غنىً . وابْدأْ بمن تعُول ﴾

انَّما اشترط الشارعُ هذا الشرط لتبقى نفسُ المتصدّق طيّبةً بما تتصدق به غير تابعةٍ له ، ولا نادمة عليه. أما اذا وثق من نفسه الرضاء والتبريك للفقير بما آثره به على نفسه فتكون صدقته اذ ذاك ذات فضلٍ بل هي لعمري أفضل من صدقة الغنيّ بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ النَّاس مُؤمنٌ فقيرٌ يُعطي جَهْده ﴾

وفي مثل هؤلاء المحسنين الأبرار نزل قوله تعالى :

﴿ وَيُؤثِرونَ على أنفسِهِم وَلو كان بِهم خَصاصة ﴾

و (الخصاصة) الفقر والحاجة . ولا يستقلنَّ المرءُ الصَّدَقةَ مهما كانت حقيرةً فانها قد تقع من الفقير موقعها ، قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا أتاكمُ السَّائل فضعُوا في يدهِ ولو ظِلْفا مُحرْقا ﴾

﴿ اتَّقُوا النَّارَ ولو بشقّ تمرة : فإن لم تجدوا فبكلمةٍ طيّبَة ﴾

وقال أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام : « لاتستح من إعطاء القليل فإنَّ الحرمان أقلُّ منه »

ومما ورد في فضل الصدقة عامّةً قوله تعالى :

﴿ مثلُ الذين يُنْفِقُون أمْوالَهم في سَبيل اللهِ كَمَثَلِ حبَّةٍ أنبَتَت سبْعَ سَنابلَ في كلّ سُنْبلة مِئَةُ حبَّةٍ ﴾

(في سبيل الله) أي فيما يُرضي الله تعالى من الأعمالِ وصنوفِ الإحسان . فمقدار الحبَّة مما أُنفق في هذا السبيل ينتجُ عنه من الخير أضعاف أضعافه الى سبعمائة ضِعف . والمرادُ من ذلك الوصف إظهار ماينتجه التصدُّق على الفقراء من ضروب النفع والفائدة العائدة على الأغنياء والمتصدّقين. وقال بعض الفضلاء

في تفسير ما ورد في الخبر - من أنّ الصَّدقة تدفع البلاء « لاجرم أنّ العناية بالفقراء وتعهّدهم بالصَّدقة وتدارك أسباب معيشتهم وراحتهم يدفع عن الأُمة بلاءً اجتماعياً عظيماً متوقّعاً من قبل أولئك الفقراء » وتفسيرُ هذا القول مشاهدٌ فيما هو واقع اليوم بين العُمَّال وأرباب الأموال في العالم المتمدّن ، على أنّ هناك حديثاً أصرح من ذلك وهو قوله صلّى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ويْلٌ للأغْنياء من الفُقراءِ ﴾

فالشَّارع يُحذّر بهذا القول أرباب الأثرة والطمع والحرص على المال - من حقد الصعاليك وتألّبهم عليهم ، ومدّ يدهم بالسوء إليهم ، وقال تعالى :

﴿ الذين يُنفِقون أموالَهُم في الليلِ والنَّهارِ سرًّا وعلانيةً فلهُم أجرُهم عندَ ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولاهم يَحْزنون ﴾

﴿ وأحسِنوا إنّ اللهَ يحبُّ المُحْسِنين ﴾

﴿ والذين في أموالهم حقٌّ مَعلومٌ للسّائلِ والمَحْرومِ ﴾

ومن الأحاديث الشريفة - في فضل الصدقة والزَّكاة - قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا مات الانسان انْقَطَعَ عَمَلهُ إلاّ من ثَلاثٍ : صَدَقةٍ جارية ، أو علمٍ يُنتفَعُ به ، أو وَلدٍ صالحٍ يدعو له ﴾

قوله (صَدَقة جارية) أي عمل خيريّ ينتفع به الفقراء بعد مماته إلى ماشاء الله . وهذا كبناء مستشفى لمرضى الفقراء ، أو ملجأٍ لعجزَتهم ، أو مكتبٍ لصِغارهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنما يستظلُّ المؤمن يومَ القيامة في ظِلّ صَدَقته ﴾

﴿ الصّدقةُ تُطفيءُ الخطيئةَ كما يُطفيءُ الماءُ النار ﴾

﴿ الزّكاةُ قنطرة الاسلام . ﴾

كأنّ المعنى أنّ بين المسلم وبين الأسلام قنطرة لايصل اليه حتى يجتازها . وهذه القنطرة هى إخراج مافي ذمته من الزكاة وإيصالها إلى أربابها . وفي هذا إنذارٌ شديد لتاركي الزكاة . كما أنّه يدلُّ على أنّ مِنْ أكبرِ أركان الاسلام ومقاصده العليا تلافى شرور الاجتماع الإنساني من طريق التوفيق بين الأغنياء والصعاليك في توزيع الثروة عليهم ضمن نظامٍ ثابت . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ كلُّ مالٍ أُدِّيَتْ زكاتُه فليس بكَنْزٍ وإن كانَ مَدْفوناً تحت الارض . وكلُّ مالٍ لا تُؤَدَّى زكاتُه فهُو كنزٌ وإن كان ظاهراً ﴾

هذا الحديث يفيد أنّ الإسلام لايُريد أن يُنفق أرباب الأموال ثَرَواتهم كلّها في سبيل الصّدقات والمبرات وإنما كل مايريده منهم أن يُؤدوا حقوق إخوانهم الفقراء فيها ثم لهم بعد ذلك أن يكنزوها أو يتصرّفوا في الانتفاع بها كيفما شاءوا وأحبوا وبذلك لايكونون داخلين في وعيد قوله تعالى :

﴿ والذين يَكْنِزُون الذّهبَ والفِضّةَ ولا يُنفِقونها في سبيلِ الله فبشّرْهم بعذابٍ أليم ﴾

ومن آداب الصّدقة أن يُخرجها المتصدّق من طيّبِ ماله : فلايعمد الى رَذْله وخسيسه فيُعطيه الفقير . وجاء في ذلك قولهُ تعالى :

﴿ لنْ تنالوا البرَّ حتى تُنفِقُوا مما تُحِبُّون ﴾

أى حتى تنفقوا من المال الطيب الذى له منزلة وموقع من نفوسكم . وقال تعالى أيضا :

﴿ يا أيّها الّذين آمنوُا أنْفِقوا من طيّبات ما كسبتم ومما أخْرَجْنا لكم من الأرض . ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تُنفِقون . ولستُم بآخِذيه إلاّ أنْ

تغمِضُوا فيه ﴾

أي لاتنفقوا من المـال الخبيث الذي إذا اضطُررتم الى أخذه من غيركم أخذتموه على كُرهٍ وإغضاء وتسامح . نعم يجوز للمتصـدّق أن يتصدّق بالتافه الحقير إذا لم يجد سواه وكان ينفع الفقير بالجملة . كما في الحديث السابق : « رُدُّوا السائلَ ولو بظِلفٍ مُحرَق » . ومن آداب الصدّقة أن لا يَمُنَّ المتصدّق بها ، ولا يُؤذي الفقير بالتطاول عليه في إسدائها اليه . وفي هذا المعنى قوله تعالى:

﴿ الذين يُنفِقُون أموالَهم في سَبيل الله ثمّ لا يُتبِعون ما أَنفقُوا مَنًّا ولا أذًى لهم أَجرُهم عند ربّهم ولا خَوفٌ عليهم ولاهم يَحزَنون ﴾

﴿ قولٌ معروفٌ ومغفِرَةٌ خيرٌ من صدَقةٍ يَتبَعُها أذًى . والله غنيٌّ حليمٌ ﴾

أي انّ الردّ على السائل ـ بما تُعورف عليه من لين القول والدّعاء له بالمغفرة ـ أفضلُ عند الله من صدقةٍ تُعطيه إياها ثم تؤذيه بشيءٍ من ضروب الأذى بعدها . وانظر ما أجمـلَ ختم هذه الآية بقوله « واللهُ غنيٌّ حليم » (غنيّ)أي عن صدقةٍ هذه صفتها . وفيه اشارة الى أنَّ الصدقة التي تُدفَع الى الفقير كأنمـا تُدفع إلى الله جلّ شأنه . أو المراد بكونه تعالى (غنيًّا) أنَّ لديه من أبواب الغنى والرزق الشيء الكثير فهو يفتحها لذلك الفقير الذي تصدّقت عليه ، ثم خلَصْتَ بالأذى اليه . وقوله (حليم) أي عنك أيّها المؤذي اذا تبت ولم تعُدْ لمثلها

ومثل المنّ في إفساد الصدَقة أن يراها المتصدّق في نفسه عظيمةً ذات شأن وقيمة . ومن لطيف ما يُحكى عن خالد بن صفوان وكان بخيلاً أنه كان يقول : « والله ماتطيبُ نفسي بإنفـاق درهمٍ إلا درهمًا أقرعُ به باب الجنة ، ودرهمًا أشتري به مَوْزا »

فقوله (أقرع به بابَ الجنة) أي اتصدّق به وأصل الى الجنة فأقرع بابها للدخول اليها بواسطة ذلك الدرهم. ولايخفى مافي هذا القوْل من استعظامِ شأن درهمه الذي أنفقه ، و نبْل منزلته في نفسه

و مُحصّلُ القول أنّ التصدُّق على الفقراء وإيصال ما فرضه الله من الحقوق اليهم من أكبر الواجبات الاجتماعية على الأغنياء المُوسرين . وإذا أراد الله بأمّـةٍ خيراً جعل المال في أيدي الاخيار من أبنائها الذين يعرفُون كيف ينفقُونه في مصالحها ويُواسون به فقراءها . وما أحسن ما كان يقولهُ سيّدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : « اللّهم اجعل المال عند خيارنا ، فلعلهم يجودون به على أولى الحاجة منا »

الامانة والعهد

(الوعدُ) و (العهدُ) متقاربان في المعنى ويُفَرّق بينهما : بأن (الوعد) يتعلّق غالبًا بالمصالح الوقتية ، والأمور الشخصية ، ولا تكون ذاتَ بالٍ . أما (العهدُ) فيتعلق بالمصالح العامة والأمور ذات الخطَر والشأن التى قد ينتج عن الإخلال بها فسادٌ كبير ، أو شرّ مستطير . وفرْق أيضًا : وهو أنّ (العهد) يقترن به غالبًا أيمانٌ مغلّظة ، ويُفرَغ في قيودٍ وشرائط معينة ، تسَجَّلُ وتدوّن ويُوقع عليها المتعاهدون أحيانًا . ولا كذلك (الوعد) فانه يُكتفىٰ فيه بالقول والمواطأة . ومن ثمّ كان أمر العهد أخطر ، ووجوب مراعاته أوكد ، والرجوع عنه أبشع وأقبح . حتى خصُّوا نقضه باسم (الخيانة) و (الغدر) كما خصُّوا المحافظة عليه والقيام به باسم (الأمانة) وصاحبها (أمين) . و (الوفاء) يُطلق على حسن القيام بالعهد والوعد . أما ترك انجاز الوعد فيسمّى (خُلْفا) . ومهما عدّد الواصفون من محامد (الصدق) في القول و (إنجاز الوعد) وحسناتهما فان

ذلك قليلٌ بالنسبة الى محامد (الأمانة) كما أنّ قبح (الكذب) و (خُلف الوعد) لاشيء بالنسبة الى قبح (الخيانة) وفظاعة أمرها وسوء مَغبتها. على أنّ الحسن والقبح في الجانبين يتوقفان على مبلغ ماينشأ من حسن الآثار وقبحها.

وقد أشرنا آنفاً الى أنّ العهود إنما تتوثّق بين الناس من أجل الامور الهامة والمصالح العامّة، بخلاف المواعيد. ومِنْ ثَمَّ كان (الوفاء بالعهود) أعمَّ أثراً وأطيبَ ثمراً، كما كان (الغدْرُ) فيها أبين ضرراً، وأبشع خبَرا. ومَنْ عُرِفَ من الرجال بالغدر، ونكث العهد، قَلَّتْ ثقة الناس به وتجنَّبُوا مشاركته والارتباط معه في الأعمال الماليّة والاقتصاديَّة والوطنيَّة، فتراه بَعيداً وإن كان قريبا، غريباً وإن كان نسيبا. وبالله ما أشأمَ الخيانة، وما أشدّ عيثها في البشر وأسرعَها في إفساد مصالحهم، وتقطيع روابطهم. ومِنْ ثَمَّ جعَلَها الإسلام منافيةً لخصاله، وصاحبَها غيرَ معدودٍ في أبنائه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿لا إيمانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ له، ولا دِينَ لمن لا عَهْدَ له﴾

﴿إنّ حُسنَ العهْدِ من الإيمان﴾

﴿المُسلمون عند شُروطِهم﴾

﴿مَنْ غشَّ فليس منا: المَكْرُ والخَدِيعَةُ والخِيَانة في النار﴾

ولعمري إنَّ الشارع صلى الله عليه وآله وسلم قد أعذر في أقواله هذه إلى من اتَّبعه من المسلمين، وبَرِئَ من دَرَكِ التقصير [1]، في الارشاد والتحذير. فليَبْرَؤُوا هم من دَرَكِ التقصير في العمل إن كانوا فاعلين. وقد مدَحَ القرآن الأبرارَ فقال في صفتهم:

﴿والذين هُمْ لِأماناتِهم وعَهْدِهم رَاعُون﴾

﴿والمُوفُون بعهدهم إذا عاهَدوا﴾

(١) الدرك بالتحريك ويسكن بمعنى التبعة وبمعنى المسئولية كما نقول اليوم

وحضّ المؤمنين على الوفاء بالعهود فقال تعالى

﴿ يأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾

وقال تعالى في آيةٍ اخرى:

﴿ واحفظوا أيْمانكم ﴾

(العقودُ) هي العهودُ يعقدها الناسُ فيما بينهم استيثاقاً لمصالحهم. و(الأيْمان) ما يحلفون به على حفظ تلك العقود ، وقال أيضاً :

﴿ وأوفوا بالعَهْد: إن العَهدَ كان مَسئولا ﴾

ومن ضُروب العهد (الوظيفةُ) التي يشغلها المرءُ في خدمةِ حكومةٍ وطنية فإنها في المعنى عهدٌ بينه وبين أمّته أن يخدمها بصدقٍ واخلاص : فلا يتوانى في العمل ، ولا يتناول غيرَ ما أحلّه اللهُ له ممّا أؤتمنَ عليه . وقد لامَ صلى الله عليه وآله وسلم عاملاً اساء في عِمالتِه [١] فقال :

﴿ أما بعْدُ فَما بالُ العامل نَستَعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم [١] ، وهذا أُهْدِيَ اليَّ ، أفلا قعَدَ في بيت أبيه وأمّه فينظر هل يُهْدَى اليه أم لا ؟ ﴾

أراد هذا العامل أن يقول : إنَّ ما أُعْطيتُه من المال لم يكن رشوةً وانما هو هديّة ، فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الحجّة القاطعة

ومن ضروب العهد (الوديعةُ) يُودعك إياها صاحبها وكأنه بذلك قد توثّق بينكما عهدٌ على حفظها ثم ردّها في حينها موفّرة ، فأصبح من الواجب عليك الوفاء بهذا العهد ، وأن تكون أميناً على الوديعة لاتخونها ، ومن هنا سُمّيت (الوديعة) نفسها (أمانة) . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في التوصية بهذا النوع من العهد:

﴿ أدّ الأمانة الى مَنْ ائْتَمنك ، ولاتخُنْ من خانك ﴾

---

(١) العمالة والعمل هما مانسميه اليوم مأمورية ووظيفة

وفُهِمَ من الحديث أنَّ مُودِعِ الوديعة لو كان هو نفسه قد سبق له أن خانك لا ينبغي لك أن تخونه أنت في وديعته ، وإنَّما عليك أن تعمل بدينك فتفي له ثم تستعين الله عليه ، وهذا نهاية الكمال الانساني في خُلُق الأمانة ، ووجوب تجنُّب الخيانة

وعقودُ شركات التجارة بين التجّار والمتعاملين من جملة العهود الواجب الوفاء بها . وورد في ذلك قوله صلّى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إن اللهَ يقولُ : أَنا ثالثُ الشَّريكين ما لم يخُنْ أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجْتُ من بينْهما ﴾

وهذا تمثيل جميل ، والمعنى انَّ بركة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين : فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفعت البركةُ من تجارتهما ، وزايلهما التوفيق الالٓهي . وهذا أمرٌ مشاهد فإنّ صفة الأمانة في التاجر توطّد ثقة إخوانه فيه ، واقبالهم على معاملته فتزداد أرباحُه ، وتغزُر ثروته . وبالعكس إذا كان خائنًا خرب الذّمة فإنَّ مصيره الإفلاس ، والسُّقوط من عيون الناس ؛ ومنْ ثَمَّ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الأمانةُ غِنًى ﴾

﴿ الأمانةُ تجْلُبُ الرزق ، والخيانةُ تجلُب الفقر ﴾

ومن ضروب العهد (الاستشارةُ) كأنَّ المستشير في استشارته لك عقد معك عهداً أن تنصح له ، ولا تغشّه ، فصار من الواجب عليك الوفاء بعهده . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ من أشار على أخيه بأمر يعلم أَنَّ الرُّشدَ في غيره ـ فقد خانه ﴾

﴿ المُستشارُ مؤتمَن ، فإذا استُشير أحدُكم فليُشر بما هو صانعٌ لنفسه ﴾

أي ينصح للمستشير بما ينصحُ لنفسه لو كان هو في محله

ومن ضروب العهد (أحاديثُ الناس) في مجالسهم ، فهم في اجتماعهم كأنّهم تعاهدُوا على أن يؤمّن بعضهم بعضا : فيحدّث أحدُهم إخوانه بما في نفسه من دون خوفٍ ولا حذر ، فصار من الواجب على كلٍّ منهم الوفاءُ بالعهد : فلا يخون في نقل الحديث وإفشائه . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله : فلا يحلُّ لأحدهما أن يُفشي على صاحبه مايخاف ﴾

﴿ إذا حدّث الرجلُ بحديثٍ ثم التفت فهي أمانة ﴾

يعني أنّ (عهد المجلس) والوفاء به لا يتوقّف على عقدهِ بإيجابٍ وقبولٍ صريحين ، بل يكفي فيه أقلُّ مايُفيد أنّه عهد واجب المُراعاة ولو بالتفاتةٍ من المحدّث تشعر بأنه لايريد أن يَسمع حديثَه غيرُ المخاطب ، فالواجبُ إذاً الوفاء وعدمُ الإفشاء . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المجالسُ بالأمانة ، الاّ ثلاثة مجالس : سفكُ دمٍ حرام ، أو استحلالُ عرض حرام ، أو اقتطاعُ مالٍ بغير حقّ ﴾

يعني أنّ (عهد المجلس) إذا تضمّن استحلال محرّم لاينعقد ولا يجب الوفاءُ به مادام هناك عهدٌ آخر أسبق منه وأوكد : وهو ما عاهدنا عليه ديننا الاسلاميّ من أننا معشرَ المسلمين لانرتكب كبيرةً من مثل استحلال الدم والعرض والمال ، فعَلى من حضر هذا المجلس الذي تستحل فيه الاشياء المذكورة ان يعمل بالعهد العامّ النافع ، وما عليه مَلام إذا أفشى سرّ هذا العهد الفاجر

وممّا ورد بشأن الحضّ على هـذا العهد العامّ قوله تعالى :

﴿ ياايّها الذين آمنُوا لاتخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون ﴾

ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتّقوا الحجرَ الحرامَ في البنيان فانه أساسُ الخراب ﴾

فسارقُ الحجر الواضع له في بناء داره خائنٌ للعهد العامّ الذي توثّق بين أبناء الأمة بواسطة دينهم من تحريم أموالهم عليهم الا بحقّها ، وإنَّ داراً أُسّست على خيانة قلّما تدوم أو تسلم من الخراب والدمار .

ومن أدقّ العهود التي تجب مُراعاتها والتي ربّما خفي أمرها على الناس (العهدُ مع العُميان) فإن أفراد هذه الطائفة بما لحقهم من هذا المُصاب الذي خرجوا به من العالم -وإنْ كانوا مازالوا فيه- كأنّهم عاهدوا اخوانهم وقد رأوا بعينهم مُصابهم أن يُسلّموا عليهم ، ويَهدُوهم الطريق ويُسرعوا اليهم بالمعونة ، ولا يحرموهم التأنيس الذى اعتادوا أن يتبادلوه هم فيما بينهم . فإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كأنهم قد خانوهم وأخرجُوهم من هيئة اجتماعهم . ولم يفُوا لهم بعهدهم . ولعلَّ ماقلناه هومعنى مارواه ابو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم انه قال :

﴿ تركُ السلّام على الضّرير خيانة ﴾

والحاصل أنَّ الأمانة في الأمّة والمحافظة على العهود الموثّقة بين أفرادها هو ملاكُ كرامتها ، والباعث على توفير الخير والبركة والرزق فيها ، واذا قصّرت الأمّة بواجبها من هذا القبيل ساء حالها ، وكثر النّكد فيها ، وتقلّص ظل الهناء والخير عنها . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ لا تزالُ أُمتى بخيرٍ ما لم ترَ الأمانة مَغنَماً والصّدَقة مغرَماً ﴾

أى انها تبقى في خيرٍ وسعادةٍ وصلاح حالٍ الى وقت تَعتبر فيه الأمانةَ التى تؤتمن عليها غنيمةً حلالا لها : فتخون صاحبها وتأكلها . كما تعتبر الصدَقةَ الواجبَ عليها أداؤها للفقير بمثابة غرامةٍ وضريبةٍ تؤخذُ منها من دون حقٍّ : إذا وصلَتْ الامة الى هذا الوقت الذي يكون فيه شأنها ما ذكر من استحلال الامانات ، ومنع الزكوات ، تبدّلَ الخير فيها الى شرّ ، واستحال اليُسْر الى

عُسْر ، والمعروف الى نكر . والعياذُ بالله تعالى

وقد كانت صفةُ الأمانة وحسن العهد من أخصّ أخلاق نبيّنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم وقد ظهرت تباشيرها ومخايلها عليه منذ زمن حداثته حتى لقّبه مشركو مكّة بالأمين . وما زالوا كذلك يلقّبونه به حتى بعد بعثته : فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر الى المدينة خفيةً أبقَى في مكّة ابنَ عمه عليًا عليه السلام لينوب عنه في ردّ ما كان لديه من الودائع والأمانات الى المشركين من أهلها . فهم لم يرَوْا أنْ يُؤمنوا به ، لكن رأَوْا أن يأتمنوه على كنوزهم . وهذا من مواضع العجب : رجلٌ لا يجرؤ على خيانة الناس أقترابهُ يجرؤ على خيانة ربّ الناس ! ! !

الجهر بالحق

ويسمَّى أحيانًا (الشجاعة الأدبيّة) و (حريّة القول) . أما اسمهُ بلسان الشرع فهو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) والغَرَضُ من هذا الواجب الاجتماعيّ أن يرى المرءُ باطلاً يُريد أن يظهرَ في مظهر الحقّ ، ويقومَ مقامه فيحمله دينه وشجاعته وكِبَرَ نفسه على تأييد الحق ونشله ، وإزهاق الباطل وخَذْله . ويهتف بما علمه القرآن أن يهتف به في مثل هذا الموقف

﴿ وقلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِل . إنَّ الباطِلَ كان زَهوقا ﴾

ولم تنجح امةٌ أو تقمْ دعوة إلاّ على أساس الجهر بالحق . وإنَّ بقاءَ كل امةٍ في الوجود متوقفٌ على بقاء هذا الأساس متينًا : فاذا انهار انهارت الامة على الأثر . ولم يعد يبقى منها الاّ الأثر . وهذا ما خشيَه الشّارع على امته مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا رأيْتَ أُمتي تَهابُ الظَّالمِ أنْ تقولَ له : إنّكَ ظالم ، فقد تُوُدّعَ منها ﴾

أي اذا وجد في الامَّة من يجرؤ على ارتكاب المظالم ولم يوجد فيها من يجرؤ على رَدْعِـهِ فقد تعرَّضت الامة إذ ذاك للضياع ، وحقَّ أن يقال لها الوَداع الوَداع . واذا بحثنا عن الأسباب التي أدّت الى عظمة أوروبا وقوة شعوبها ، وعلو كلمة دولها ، لم نكد نجدها تعدُو ما أمرَ الاسلام به من وجوب الجهر بالحقّ أيْ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : فقد مرَّت على أوروبا قرونٌ وأجيال كانت فيها غائصةً في بحر من الأوهام والأباطيل ولبثت كذلك حتى هبَّ (الجهرُ بالحق) من مضجعه فأنقذها من ذلك البحر ، وردَّ اليها الحكمَ والأمر . وإن الإسلام ليعتبرُ شرف الامم وعلوَّ كعبها في المدنية ومراتب الانسانية على قدر ما لديها من خصلة الجهر بالحق ، ومسارعتها الى نصرته على الباطل . وآيةُ ذلك هذه الآية الكريمة :

﴿ كُنْتم خيرَ امةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ : تأمُرونَ بالَمعرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المنكر ﴾

فالقرآن لم يشهد لأتباعه بالرُّجحان والتقدم على غيرهم من الامم إلاَّ لقيامهم بهذا الواجب . ولم يزكّهم ويطهرهم الا على هذه الشريطة

وقد حضَّهم على أن يتخصَّص منهم طائفة للقيام بواجب الجهر بالحق وإحيائِهِ فيما بينهم فقال تعالى :

﴿ ولْتكُنْ منكم أُمَّةٌ يَدْعون الى الخيرِ ويأمُرون بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المنكر ﴾

(امةٌ) أي طائفة وجماعة . وقد نهى القرآن أيضاً عن كتمان الحق ،

وإدالة [1] الباطل منه فقال تعالى :

﴿ ولا تَلبسُوا الحقّ بالباطِلِ . وتَكتُمُوا الحقّ وأنتم تعْلمون ﴾

(اللبْسُ) الخلط والمزج . وعاب أقواماً قصّروا في القيام بهذا الواجب . فقال تعالى :

﴿ كانوا لا يَتناهَوْنَ عن مُنكرٍ فعلُوه لَبئْس ما كانوا يفْعلون ﴾

ومن قبيل الجهر بالحقّ (الشهادة) فعلى المرءِ أن يؤدّيها ولو على نفسه بدليل قوله تعالى

﴿ يا أيُها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْطِ شهداءَ للهِ ولو على أنفُسِكم أو الوالِدَيْنِ والأقْرَبين ﴾ :

(شهداءَ للهِ) أي اشهدوا بما تعلمون أنه الحقُّ لوجه الله وعملا بطاعته ولو رجع ذلك بالضرر عليكم ، أو على أقرب الناس اليكم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ قل الحقَّ ولو على نفسِك ﴾

﴿ اقبل الحقّ ممن جاء به : من صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان بَغيْضاً بَعيداً . وارْدُدِ الباطلَ على من جاءَ به : مِن صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان حبيباً قريبا ﴾

﴿ قُل الحقَّ ولو كان مُرّاً : لا تَخَفْ في الله لومة لائم ﴾

ويكثر في النصوص الاسلامية التي تحضُّ على الأعمال الصالحة أن يقال فيها (لله) و (في الله) و (من أجل الله) و (لوجه الله) ويُراد بذلك أن يقع العمل لمحض كونه حقّاً تجب نصرته والقيام به امتثالاً لأمر الله ، لا لكونه يوصل الى غرضٍ شخصيٍّ أو دنيويٍّ تافِهٍ . فقوله (لا تخف في الله لومة لائم)

---

(١) أي جعل الدولة والظهور للباطل بعد أن كان للحق

معناه قل الحقّ ولا تخف ملامَ اللائمين وتقبيحهم فعلكَ ما دام الجهرُ به واجباً عليك ، وقد أمرك الله به

وكلما كان المتصدّي لنُصْرة الحقّ عُرْضةً للخطر أو الأذى كان صنيعه أفضل ، وثوابُه عند الله أجزل . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحبُّ الأعمال الى اللهِ كلمةَ حقٍّ تقال عند سُلْطانٍ جائر ﴾

والمراد بالسلطان صاحب السُّلطة ونفوذ الكلمة في أمر الامة فهذا اذا جار عليها وتمسك بالأباطيل في إدارة شؤونها كان الواجب مقاومته وردُّه الى الحقّ فيما يأتي ويذر . ولا ريب أن الذي يتصدّى لذلك الجائر يكون عُرضة للخطر وكان عمله من أحبّ الاعمال وأشرفها

وفي مثل هذه الحالة حالة العجز عن الظالم لقوته واستبداده لا يسقط فرضُ هذا الواجب الاجتماعي (الجهر بالحق) عن عقلاء الأُمّة ، بل هم مكلفون أن يمارسوه في قلوبهم . فيتفكّرون في هذا المنكر أو الباطل المستحوذ على الناس ، ويبحثون في أسبابه ونتائجه منتظرين الفُرص لدفعه وإزالته . ومِنْ ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ من رأى منكم مُنكراً فليُغَيّره بيده ، فإن لم يَسْتَطعْ فبلسانه ، فإن لم لم يَسْتطعْ فبقلبه ، وذلك أضعفُ الإيمان ﴾

قوله (فبقلبه) أي فليغيّره بقلبه ، ولا معنى لتغييره بالقلب فيما أرى الا ما ذكرت : من التفكر فيه ، والتربص له حتى تتهيأ أسباب التخلص منه

والذين يتصدون للجهر بالحقّ ومقاومة الظالمين والمبطلين يكونون عرضة لسخرية هؤلاء ، وانتقام أولئك ، واذ ذاك يتحاماهم الناس ، ويتجنبون مخالطتهم والجلوس اليهم . خوفاً أن يُتّهموا أنهم على رأيهم ، وعلى مثل طريقتهم فيُصبحوا في قومهم كأنهم غرباء ، وان كانوا في حقيقة الأمر أبناءً لهم أو أنسباء . وقد عَناهم

وأشفق عليهم صلى الله عليه وآله وسلم مُذْ قال :

﴿ طَلَبُ الحقّ غُرْبة ﴾

﴿ طوبى للغُرَباء : أُناس صالحون في أُناس سوءٍ : مَنْ يعْصيهم أكثر ممّن يطيعهمْ ﴾

وقد عاب الشارع فعل من يرى قومه مُعرضين عن الحقّ ، آخذين في طريق الباطل فيسكت عنهم ، ولاينصح لهم . أو هو أحياناً يأخذُ إخذهم ويُعينهم على غيهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَثَلُ الذي يُعين قومه على غير الحقّ مَثَلُ بعير تردّى وهو يَجُرُّ بذَنَبه ﴾

أي إنّ شأن من يتمسك بما كان عليه قومه من الأباطيل ـ وهو يعلم أنها أباطيل ـ شأن من يتمسّك بذَنَب بعيرٍ قد وقع في حفرةٍ عميقة ، لا جَرَمَ أنّ البعير اذ ذاك يجرُّه معه الى الهاوية فيهلك . وهذا شأن ذلك المساير لقومه على الأباطيل سوف يهلك معهم ، ولا ينفعه مجرّدُ علمه بباطلهم

وللحقّ معنيان : معنى اجتماعيّ عام ، وهو المتعلق بمصالح الامّة ، ومقوّمات حياتها الدينية والسياسية والاجتماعية . ففي الدّين حقٌّ ويندسّ فيه أحياناً أباطيل يجب الكشف عنها وإزالة سُمومها . وفي السياسة حقٌّ ويلتبس به أحياناً أباطيل يجب الجهر بها ، والاحتراز من عواقبها . وفي الاجتماع حقّ ويَسْرى اليه أحياناً أباطيل تُفْسد الاخلاق والعادات والآداب العامة فيجب تتبعها وتنقية المجتمع من شرورها

وجميع ما تقدّم من الآيات والأحاديث انما هو وارد بشأن هذا الحقّ العام . فهي محضٌ على تأييده وتدعو الى مقاومة الذين يخذلونه ، وينصرون الباطل عليه

أما (المعنى الثاني) للحق فهو الذي يكون لشخص على آخر فينكره عليه أو يظلمُه فيه ، ثم يترافعان الى الحاكم . وهذا النوعُ من الحقّ لا يدخل في موضوعنا أعني (الجهر بالحق) وربّما كان هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ نِعْمَتْ المَيْتَةُ أن يموت الرجلُ دونَ حقّهِ ﴾

وذلك أن يكون للشخص مثلاً مال فيُحاول آخر اغتصابه منه ، فيدفعه عنه فيقتله الآخر ، فيموت شهيداً . كما ورد التصريح به في الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ما مِن مُسلمٍ يُظلَمُ مَظلمةً فيقاتِلُ فيُقتَل إلا قُتِلَ شهيداً ﴾

ولا بدَّ من اشتراط أن يكون ذلك الحقُّ الذي سُلبه وقُتلَ بسببه ممّا يضره ضياعه أو يفسد عليه أمر معاشه أو كرامته . أما الشيء الحقير من حُطام الدنيا فلا أظنُّ الشرعَ يرضى للانسان أن يُعرِّض نفسه للهلاك من أجله

ومرادُ النفوس أحقر من أنْ تتعادَى فيه وأن تتفانى

ويحتمل أن يكون المراد بالحقّ في قوله : (نعْمت الميتة أن يموت الرجلُ دون حقه) الحقَّ العام المتعلّق بالمصالح العامّة : فاذا دافع امرؤٌ عن مثل هذا الحقّ ومات كان محموداً في ميتته ، مخلَّدَ الذكر في نفوس أبناء امّته . وهذا كشهداء الأوطان الذين يموتون في سبيل الدفاع عنها ، والذَّود عن حقوقها . فتُشيدُ أممُهم بذكرهم ، وتنظمُ الشعراءُ الأناشيدَ في الثناء عليهم ، إضراماً لنار حُبِّ القدوة بهم .

أمَّا الجهرُ بالمطالبة بالحقوق الشخصية فهذا أيضاً أمرٌ واجب . والاّ فان تسامح المرء بحقوقه وصبره على ضياعها المرَّة بعد المرَّة قد يُلحق به اللأواء ، أو البؤس

والشقّاء . ويروى أنه كان لبعض الناس حقٌّ لديه صلى الله عليه وآله وسلم فطالبه به بعُنف وغِلظة ، فامتعض سيّدنا عمر وهمَّ بالرجل ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ دَعْهُ فانّ لصاحِب الحقّ مَقالاً ﴾

يُريد انّ الرجل ما دام صاحبَ حقّ فله كلُّ الحقّ أن يُطالب به ، ويجتهد في استرداده . ولا يجوز لأحدٍ أن يلومه أو يُسكته . وهذا نهاية في إنصافه صلى الله عليه وآله وسلم ، وانطباع نفسه الشريفة على حبّ الحقّ ونُصرة العدل .

العدل والظلم

الظُّلْمُ في أصل معناه اللغويّ وضعُ الشيء في غير موضعه ، وتحويله عن موقعه . ثم غلَبَ استعماله في أن يتعمَّد الشخصُ تحويلَ حقٍّ لآخر عنه ، وإضاعته عليه ، ومنعه من التمتّع به . وهذا يكون بأحد طريقين : إما بأن يقسِره على ما يُريد من ظُلمه قسراً . وهو ظلم الجبابرة . أو بأن يتوسّل الى ظلمه باسم القانون أو الشرع وهو ظلم الحكام . والظلمُ أيضا يختلف باختلاف عموم الحق وخصوصه : فقد يكون الحق عاماً راجعاً الى مجموع الامة ومصالحها السياسية والاقتصاديّة . فيظلمها ظالمٌ في هذه المصالح والحقوق ، ويحول بينها وبين التمتّع بها بإحدى الطرق . وليسَ هذا من موضوع بحثنا فى هذا الفصل . وقد يكون الحقُّ خاصاً متعلقاً بالأشخاص فيتشاحُّون عليه ، ويظلم بعضهم بعضاً فيه ، ثم يرجعون الى الحكام فيَعْدِلون فيهم أو يجورون . وهذا المعنى هو الذي عقدنا له هذا الفصل ، ونُريد أن نسرد النصوص الدينيّة الدالّة على تحريمه ، وتقدُّم الشارع في النهي عنه ، والوعيد فيه . وضِدُّ الظلم (العَدْلُ) وهو التوسّطِ

والاستقامة وعدم الميل إلى أحد الجانبين

إنّ استحسان العدل واستقباح الظلم أمران مغروزان في فطرة البشر ، وقد أصبحوا على اختلاف أديانهم وأجناسهم يعتقدون أنّ العدل أساسُ العمران ، وأنّ الظلم مُؤْذِنٌ بخرابه ، مقوّضٌ لبنيانه . وإنما الصعوبةُ كلّ الصُّعوبة في العمل بهذا الاعتقاد ، والجَرْيِ عليه في المحاكم وفي ضروب المعاملات .

وإذا أمرَ الاسلام بالعدل ، ونهى عن الظلم فإنما يريد في خطابه كلَّ واحدٍ من الناس لكنه يخصُّ الحُكام أحياناً بالذكر لأنّ الظلم منهم أعم ضرراً وأسوأُ أثراً . وأشدُّ تدميراً للبلاد ، وتشتيتاً لشمل العباد . قال تعالى :

﴿ إنّ اللهَ يأمركم أن تؤَدُّوا الأَماناتِ الى أهْلها واذا حكمْتم بين الناسِ أن تحْكموا بالعَدْل ﴾

﴿ إنّ الله يأمُر بالعدلِ والإحْسَانِ ﴾

﴿ ياأيُّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْطِ ﴾

و (القسط) العدل ، وقوله (كونوا قوّامين) فيه زيادة حضّ لهم على بذل الجهد في توخّي العدل ، وتبين الطرائق المؤدّية اليه ، فلا يكون منهم ظلمٌ أبداً . وقال تعالى :

﴿ واللهُ لا يحبُّ الظَّالِمين ﴾

﴿ واللهُ لا يهْدِي القومَ الظالمين ﴾

﴿ و سيَعْلمُ الذين ظلموا أيَّ منْقَلَبٍ ينقلبون ﴾

﴿ ولا تحسبَنَّ الله غافلاً عما يعمَلُ الظالمون ﴾

في هاتين الآيتين تهديد للظالمين بأن انتقام الله سيحلّ بهم مهما تأخّر عنهم وانظر كيف أخبر القرآن في آيةٍ أخرى عن قومٍ حلّ بهم ذلك الانتقام الآلهي

ثم هنّأ الأكوان بالخلاص منهم ، فقال تعالى :

﴿ فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظَلَمُوا والحمدُ لله ربِّ العالمين ﴾

أي إنهم هَلَكُوا وبادُوا فكانَ على البشر أنْ يحمَدُوا خالقهم على لُطفه بهم منذ أراحهم من شرّهم .

أمّا الأحاديثُ الشريفةُ الواردة في العدل والظلم فأكثر من أن تحْصى ، وحَسبُكَ منها قولهُ صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّقوا الظُّلمَ : فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة ﴾

﴿ لو بغَى جَبَلٌ على جَبَلٍ لدُكَّ الباغي ﴾

﴿ أحْسِنُوا إذا وَلِيتُمْ ﴾

هذا خطاب للحُكّام الذين يتولَّوْن الحُكمَ في الناس . يأمُرُهم بالإحسان وليس الاحسان المنتظر منهم سوى العدل والكفّ عن الظلم .

﴿ اتّقِ دَعوةَ المَظلوم : فإنه ليس بينَها وبينَ الله حِجاب ﴾

﴿ اتَّقُوا دَعوةَ المظلوم : فإنها تَصْعدُ الى السماءِ كأنها شَرارة ﴾

قوله (كأنها شرارةٌ) أي في سرعة ارتفاعها صُعُداً . أو من شدّة توقّدها المكتسب من توقّد قلب صاحبها المظلوم . أو لأنها ستكونُ ثِقاباً توقد به نارُ العذاب على الظالم .

﴿ دَعوةُ المظلوم مُستجابةٌ وإن كان فاجراً ففجُورُهُ على نفسه ﴾

المعنى أنَّ لكلٍّ من فجور المظلوم ووقوع الظلم عليه حِسابُهُ : فهو يُنْتَصَفُ له ، كما يُنْتَصَفُ منه . ومن كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « بئس الزاد الى المعاد العُدوان على العباد »

ومن آداب الإسلام حماية المظلوم ، والوقوفُ في وجه الظالم . فمهما أحَسَّ

المُسلم من أخيه ظلماً وجوراً في مُعاملة الآخرين وجَبَ عليه أن ينهاه عنه ، ويحذّره سوءَ مغبّته ، كما إذا رأى أخاً له يظلمه ظالمٌ وجَبَ عليه أن يبادر الى دفع الظلم عنه بمختلف الوسائل . وقد لَفَّ الأمرين معاً الحديثُ الشريف . وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أنصر أخاكَ ظالماً أو مَظْلوماً ﴾

قيل : كيفَ أنصره ظالماً يارسول الله ؟ قال :

﴿ تحْجُزُه عن الظلم : فإنَّ ذلك نصْرُه ﴾

وينبغي أن نستفيدَ من هذا الحديث أمراً جديراً بالتدبّر والانتباه : ذلك أنَّ في إطلاقاتِ النصوص الدينية جُملاً وأساليبَ بليغةً لا يُتفطّنُ لها الا بعدَ التأمّل فيها ، والرجوع الى النصوص الاخرى التي وردت في موردها . فلو لم يستشكل السائلُ نُصرة الاخ الظالم ويفسّره له الشارع لاتُهم الاسلام بأنه يأمر بحمايةِ الظالم واعانتهِ على ظلمه مع أن الأمر ليس كذلك لأن إعانة الظالم لا تجوز بحالٍ . وقد توعد عليها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

﴿ من أعان ظالماً سلطهُ الله عليه ﴾

بل يصحُّ لنا أنْ نقول : إنّ الشارع لو لم يُفسّر لنا معنى نصرة الظالم لوجَبَ علينا أن نحمل كلامه عليه ؛ لما تحقّق لدينا من سلامة أُصول الإسلام ، واطّراد مدلولاتها في تأييد الحقّ والخير والفضيلة وحمْلِ الكافة على العدل ومكارم الأخلاق . وقد عُلمَ من قواعد الإسلام الكبرى أنّه لا يأمر بالفحشاء ولا المُنكر ولا البغي . وإعانة الظالم على ظلمه من أقبح أنواع البغى ، فكيف يأمر الشرع الطاهر به ! ! فيجب أن يكون المراد من الحديث حجزُ الظالم عن ظلمه كما فسّره صلى الله عليه وآله وسلم . ثم إنّ كلمة (الأخ) التي وردت في الإرشاد

المحمدي في قوله (انصر أخاك) الخ هي كلمة (القريب) التي وردت في الإرشاد العيسوي في قول عيسى عليه السلام (أحب قريبك كنفسك) من حيث أنّ كلاًّ منهما قد أريد به الأخ في الانسانية او الشريك في الإنسانية . لا الأخُ والقريبُ الشريكان في النسب والقرابة الرحميّة . فمن واجبات المسلم الاجتماعية إذاً أن ينصر المظلوم من أيّة طائفة كان . ويردع الظالم عن ظلمه من أيّ قبيلٍ كان

ومن أقبح أنواع الظلم ظلمُ المستضعفين من النّاس الذين لا يستطيعون حيلة في دفع الظلم عنهم سوى الشكوى الى الله ، والاتكال عليه . وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اشتدَّ غضبُ اللهِ على من ظَلَم مَنْ لم يَجِدْ ناصراً غيرَ اللهِ ﴾

الحقد والحسد

إنما ذكرنا تطهير النفس من (الحَسَد) في جملة (الواجبات الاجتماعية) لأن أثَرَه السيء يتعدّى من الشخص الى الجماعة فيُؤذيهم ، وينغص عيشهم ، ويُؤرّث نيران الفتن بينهم . فإذا سَلِمَ الاجتماع من هذا الخُلُق الذميم فقد سلم من شرٍّ كبير ، وبلاء عظيم . على أن ما يُلِمُّ بشخص الحاسد من ضَرَر الحسد وشؤمه لا يقلّ عمّا يلحق الهيأةَ الاجتماعية من هذا القبيل . إذ أن الحَسَد مَطيَّة الكَمَد ، ومِبْراة الجسد . فهو كما يوقع صاحبه في الغمّ والحزن يُضنى جَسَدَه ، ويُفسد صحّته ، وربّما أهلكه ، وأورده منيته . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام (صِحّة الجَسَد من قِلّة الحَسَد) وقال الأصمعيُّ قلتُ لأعرابيٍّ : ما أطْوَلَ عمرَك ! ! « قال تركتُ الحسَدَ فبقيتُ » ولما علَّمَ القرآنُ نبيّنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ من مساوي الأخلاق كان الحَسَدُ من جملة ما لقّنَهُ

الاستعاذةَ منه فقال تعالى :

﴿ ومِنْ شَرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ ﴾

و (الحسَدُ) تمنّي زوال نعمة الغير : فإذا تمكن هذا التمنّي المشؤوم من نفس الشخص ، وغَفَلَ عنه ، فلم يتطهّر منه بقي في نكد ، الى الأبد . لأنَّ نِعَمَ الله على العباد لاتنقطعُ ، فكمد الحاسد ونكده إذاً لاينقطع وضَرَرُ الحسَدِ اللاحق بصاحبه أشدُّ من ضرره اللاحق بالمحسود . بل ربما كان المحسود في غفلةٍ عن متاعب الحاسد وهموم نفسه . فهو في راحةٍ والحسودُ في تعب . وهل يُتصور فوق هذا شقاء ؟

(إنّي لأرحمُ حاسِدِيَّ لفرطِ ما   ضمّت صدورُهم من الأوغارِ)
(نظرُوا صنيعَ الله بي فعيونُهم   في جنّةٍ ، وقلوبُهم في نارِ)

والحَسَدُ في الحقيقة خُلُقُ لِئام الناس : لأنَّ الحسود عادةً يدع البُعداءَ عنه فلا يحسُدهم على ماهم فيه من رزق سنى ، وعيش هنيء ، ثم يَعْمَدُ الى ذوي رحمه ، أو ذوي مودته وقد تجدّدت لهم نعمة ، أوحظٌّ من دنيا ، فيحسدُهم ويبغى عليهم ، ولا يألو في إيصال الشرّ اليهم

وقد حذّر الشارع من الحَسَد ، ونبّه الى قبح آثاره . ونصح بوجوب تلافيه . وقال : انَّ صاحب الحسد غيرُ عامل بآداب الاسلام . ولا سالك طريقة النبيّ عليه وعلى وآله الصلاة والسلام . من ذلك قوله :

﴿ ليسَ مِنّي ذو حَسَد ﴾

﴿ الغِلُّ والحَسَد يأكُلان الحسَنَاتِ كما تأكُل النارُ الحَطَب ﴾

(الغِلُّ) الحقدُ . ومعنى الحديث أن الحسُود الجاهل من شأنه أن يتمادى في إتيان أعمال السُّوء ضدَّ محسوديه . فكلُّ حَسَنَةٍ تصدُر منه تعقبها سيئة منه أيضاً في حقّهم . وكما أنَّ حَسَنات المحُسنين تذهب بسيئاتهم كذلك سيئّات

الحاسدين تذهب بحسناتهم أيضاً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمن يغبط والمنافق يحسد ﴾

(الغبطة) ان تتمنى نعمة مثل نعم الآخرين من دون أن تتمنى زوالها عنهم وإلاّ كانت حسداً . وتمنّي مثل ما للآخرين من النعم لا يضرّ ولا يُمكن التوقي منه بل إنه قد يؤدي الى (المُنافسة) أحياناً . والمنافسةُ المحمودة لا يكرهها الشارع إذ يقترن بها اقتداءٌ بأصحاب النِّعَم ومجاراةٌ لهم في سلوك الطرائق المشروعة التي سلكوها حتى استحقّوا أن يكونوا موضعاً لتلك النّعَم . فالمنافسة غبطة لكنها عاملة ناصبة ، لا لاهية لاعبة . وهذه المنافسة المحمودة إذا اشتدّت بين الأفراد والطوائف والأمم دفعتهم إلى الجد والنشاط ، فتظهر إذ ذاك مواهب الرجال ، وغرائب الأعمال ، وعناية الرّب المتعال ، بالأُمم والأجيال. قال بعض الفضلاء المعاصرين : إنّ ظهور (المنافسة) بينَ طوائف أوروبا المختلفة ديناً وعنصراً كان العامل الأكبر في نهوضهم وبلوغهم هذا المبلغ في العلم والاختراع وسائر مقومات المدنية . فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (المؤمن يغبط) يريد هذا النوع من الغبطة التي يرافقها عمل وسعي . « وأَنْ ليس للانسانِ إلا ماسعى . وأنَّ سعْيَهُ سوف يُرى . ثم يجزاهُ الجزاءَ الأَوْفَى »

ومن أشدّ الأحاديث الشريفة لهجةً في التخويف من التحاسد والتباغض قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ دبّ إليكم داءُ الأُمَم قبلكم : البَغْضاءُ والحَسَدُ . هي الحالِقَة ، حالقةُ الدّين . لا حالقة الشّعَر . والذي نفسُ محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابُّوا . ألا أُنبّئُكم بأمرٍ إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفْشُوا السَّلام بينكم . ﴾

(دَبّ اليكم) أي يوشك أن يدبَّ أو أخشى أن يدبّ . فالكلام وإن كان في صورته إخباراً عن أمرٍ ماضٍ هو في حقيقته تحذير وتخويف . وقوله

(هي الحالقة) أي المستأصلة التى تذهب بكل خير وسعادة في الأمم . (حالقة الدّين) أي انه ينشأ عن تحاسدكم وتباغضكم تخاذُلكم وتقاعدكم عن نصرة بعضكم بعضاً . فتتعطل أحكام الدين ويُترك العمل بها . ثم إن الشارع في ختام الحديث أرشدنا الى دواءٍ ناجع في تقوية عاطفة الحبّ في نفوسنا وطرد شيطان الحسد منها فقال (أفْشُوا السلام بينكم) والمراد بذلك أنّ المرء منا إذا حسد أخاه وشعر في نفسه بوَجْدٍ عليه أو غيظٍ منه فليبادر اليه مُسلّماً مُصافحاً ، مجاملا مصالحاً . هذا هو السلام الذي يكون دواءً ناجعاً لمرض الحسد والبغضاء ولم يُرد الشارع قطُّ مجرّد حركة الشفاه بالسلام ، ويبقى القلبُ منطويا على الحقد والسّقام. وفي معنى هذا الحديث قوله تعالى :

﴿ إِدْفَعْ بالّتي هى أحْسنُ : فإذا الّذي بيْنكَ وبينهُ عداوةٌ كأنّهُ ولىٌّ حميم ﴾

(التي هي أحسن) أى الطريقة والخصلة التي هى أحسن وأفضل من غيرها. وهى التعجيل بالسلام والمصالحة التي أشار بها الحديث الشريف . وخير للحاسد أن يتوسل الى جعل محسوده صديقاً له فيثْني عليه أمام الناس ، و يُظهر الابتهاج بما أوتى من نعمةٍ وفضل . فإنّ ذلك من أنجع الأدوية في استلال السخيمة ، وإخماد نار الحسد . بشرط أن لايتعدى فيه حدود الصّدْق والاعتدال ، وإلاّ عُدّ متملّقاً أو منافقاً . وقد أشار الشارع الى دواء آخر ناجع في داء الحسد : ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذا نَظَرَ أحـدُكم الى مَنْ فُضّلَ عليه في المالِ والخَلْق فلينظر الى من هو أسْفل منه ﴾

أي ليفكّر الحاسد في أن النعم وخيرات الدنيا انمـا هي موزّعة على الناس ضمن نظامٍ محكم من سُنن الله تعالى ونواميسه التى هى مظهر تقديره الالهي في

خلقه . والنـاسُ مختلفون في هذه النعم ، وعلى درجات متفاوتة فيها . فمـا من صاحب نعمةٍ الا وبجانبه من هو حائزٌ لأسنى منها أو أحطّ ، كلٌّ بحسب سعيه وعمله الموافق لتقدير الله في أزله . وليس من العدل أن يُعطى الحاسد كلَّ ما يُريد من نعم محسوديه ، ويحرم هؤلاء منها ، وهم قد تعرضوا لنفحاتها . ولا ريْب أنَّ من أجال في نفسه هـذا المعنى ، وفكر فيه طويلاً خفَّ حسده ، وسكن قلقه

ومن أبشع ضروب الحسد وأشدّها شؤما على المرء أن يحسد أهله وذوى قرابته . وقد وصف هذا الضرب من الحسد وحذّر منه أبلغ تحذير أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان فقال لابنه الحسين ناصر الدولة : إذا رأيت السُّلطان قد رفع من أهلك رجلاً أو الزمان قد نوّه به ، ورأيته . فإياك أن تحسُده وتشغل نفسك بعـداوته . فانك تتعب ولا تصـل الى فائدةٍ ، وتسقط أنت ولا تضرُّه هو . وتغتم أنت ولا يتأذى هو . وتغُض من نفسك بغضّك من رجلٍ صار كبيراً من أهلك : فانه ما ارتفع الا بآلةٍ فيه يرفعُك بها أو إقبال يُدنيك منه . واجهد أن تخدمه وتصافيه الود . ليكـون ذلك الفضل الذى فيه فضلاً لك . وذلك الفخر راجعاً اليك . وتتجمَّل بثنائه عليك ، واطرائه لك . وتصير أحد اعوانه . فانه أحسن بك من أن تـكون من أعوان غيره ممن ليس من اهلك . ويراك الناس عنده وجيهاً فيكرمونك من أجله فان كان له منزلة من السلطان جاز أن تصل اليهـا باستخلافه إياك عليها ، وانتقاله الى ماهو أكبر منها . وكذلك ان كانت منزلته من غير السلطان . ولا تقُلْ أنا أقعدُ منه في النسب ، وإنى خير قرابته ، وانه هو أمس كان وضيعا وكان دوننا . فان الناس بأوقاتهم .

أما (الحقدُ) فهو نوعٌ من الغضب وقد يُفرَّق بينهما : بأن الغضب عارضٌ وقتىٌّ تظهر آثاره على المُغْضب في حركته وصوته وملامحه . أما (الحقد) فهو

غضبٌ مُزْمن في النفس . لاتظهر آثاره إلا في وقت معين ينتقم فيه الحاقد من المحقود عليه ، ويُنزل الأذى به . فالحقد اذاً غضبٌ ساكت صابر ، أو غضب منضغط في أعماق القلب ، اذا انفجر خرّب ودمّر . وهذا ولا ريب مناف لأخلاق الاسلام بدليل قوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ المؤمنُ ليس بحَقُود ﴾

أي لاينبغي له ذلك وانما هو يجتهد فيروّض نفسه على العفو والصفح والإغضاء . و (الحقدُ) يكون سببه أحياناً حسدُ الغير على ما أُوتي من نعمة ورزق وجاه : فيحسُد ثم يَحقِد ثم يُفْسِد ، وقد يكون سببَ (الحقد) مُبادَاةُ آخرَ لك بالشرّ وحصولُ قبيح منه في حقّك فتغضَب عليه وتحقد ثم تتربّص به الأيام ، وبعد عناء طويل ، في حمل ذلك الحمل الثقيل ، إمّا أن تفوتك فُرصة الانتقام وتكون أضعتَ عمرك في الهمّ والكمَد وتتبُّع الهفَوات والعثَرات لخصمك فلا تجدها أو تسنح لك الفُرَصُ فتنتقم وتشفي غيظك منه ، وبعيدٌ جدًّا أن يكون خصمك مقصوصَ الجناح الى حدّ أن يدَعَك من شرّه ولا يعود يفكّر في أمرك ، فهو في نوبته أيضا يحقد عليك ، ويأخذ في تدبير المكايد لك ، وانتظار الفُرص للانتقام منك ، وهكذا يقضي المتحاقدُون أعمارَهُم في الخصام ، ومحاولة الانتقام كما كان شأنُ عَرَب الجزيرة قبل الإسلام ، حتى جاء محمدٌ عليه الصلاة والسلام فعلّمهم الخيرَ والفضيلة ومكارم الأخلاق ، وحضّهم على العفوِ والصفح والحلم فقال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ والكاظِمين الغيْظَ والعافِين عن النَّاس ﴾

﴿ وأَن تَعْفُوا أقربُ للتقْوى ﴾

وقال صلّى الله عليه وآله وسلم في ترك الحِقد والحضّ على العفو والصفح :

﴿ أفضلُ أخلاق أهْل الدُّنيا والآخرة أنْ تَصلَ مَنْ قطَعَك ، وتعطِيَ

من حرَمَك وتعفوَ عن ظلَمَك ﴾

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام (اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه) . وسُرِقت لعبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) دراهم فجعَل الناسُ يَدْعُون على من أخَذَها له . فقال عبد الله لهُم : « اللّهم إن كانت قد حَمَلتْهُ على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كانت قد حَمَلَتْهُ على سرقتها جُرأةٌ على الذنب فاجعله آخرَ ذُنُوبِه » ومثل ذلك في التحمّل والحلم قولُ بعض الحكماء : إذا قالوا لك إن فلاناً ثَلَبَك وانتقصك فقُل لهم إنه لا يعرف جميع نقائصي وإلاّ لما اقتصر على ما قال

الغيبة والنميمة

(الغِيبةُ) ذِكرُكَ أخاكَ في غَيْبته بما يكره . وإذا لم يكن فيه شيء مما ذكرتَه به سُمّي قولك (افتراءً وبهتانا) وكان إثمك في ذلك أشدَّ وأعظم من الغيبة . وبشاعةُ ذلك كلّه ، واستنكارُ أمره ، ومبلغُ ضرره في تأريث نار الفتن ، وتقطيع روابط الألفة بين الناس ـ أصبح متعالَماً مشهورا لاحاجة الى تطويل الكلام فيه . وقد نهى الشارع عن الغيبة وحضّ على تجنّبها فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحبُّ الأعمال الى الله حفظُ اللسان ﴾

﴿ طُوبى لمن شغَلَه عَيْبُه عن عُيوب الناس ﴾

﴿ اذا وُقِع في الرجل وأنتَ في مَلأٍ فكُنْ للرجل ناصِراً وللقوم زاجراً . أو قُم عنهم ﴾

(وُقِع في الرجل) أي اغتيب والاسم منه (الوقيعة) . يعلّمنا في هذا الحديث أن لا نُلقي أنفسنا في تيّار الغيبة مع الذين يغتابون الناس بل لتكن فينا

شجاعةٌ أدبيّة تقف معها موقف الحقّ والعدل والاعتدال فنحسِنُ محضر المغتاب وندافع عنه، أو نقوم من المجلس على الأقلّ. وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿ليردُّك عن الناس ما تعلمُ من نفسك﴾

أي اذا أردت الطعن في الناس فكّر أولا في نفسك فتجد فيها عيوباً ربما كانت أبشع وأسوأ مما تذكر عنهم. وإذ ذاك تنزجر وتكفّ عن الوقيعة فيهم. وهذه الطريقة من أنجع أدوية داء الغيبة لمن وفّقه الله اليها

ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس شعراً. فإن الشعر أسْيَر في الناس، وأعلقُ بالأذهان، فيكون ضَرَره أعمّ، والإيذاء فيه أتمّ. وقد نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصّةً فقال:

﴿أربي الربا شتْم الأعْراض، وأشدُّ الشتّم الهجاء. والرّاويةُ أحد الشاتمَيْن﴾

قوله (والرّاوية) أي الذى يروي للناس مايقوله الشاعر في هجو الناس فانه يكون شريكاً للشاعر في إثمه، وكان لكل شاعر من شعراء الجاهلية راوية يحفظ شعره وينشره بين الناس. ومن أقبح أنواع الهجو الشعري أن يتخطّى الشاعر شخص المهجو الى أُسرته أو قبيلته أو وطنه. قال صلى الله عليه وآله وسلم:

أعظمُ الناس فِرْيةً شاعرٌ يَهْجُو القبيلة بأسرها﴾

ومثل ذلك في الشناعة ان يتخطى الأحياء الى الأموات فيهجوهم، ويخوض في ذكر مساويهم. وقد نهى الشارع عنه مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿اذكرُوا محاسنَ موْتاكم وكُفّوا عن مَساويهم﴾

أما القرآن الكريم فقد نهى عن الغيبة مُفْرِغاً النهي في أبلغ أسلوب، وأشدّه تأثيراً في القلوب، فقال تعالى:

﴿ولا يغْتَبْ بعضُكم بعْضاً: أيُحبُّ أحدُكم ان يأكُلَ لحْم أخيهِ

ميتاً فكرهتموه ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾

﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾

و (الهمزة) ، و (اللمزة) متقاربان في معنى الطعن في الناس والتشهير بهم ، وقال بعض المتقدمين :

« أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة (يعنى في الاقتصار عليهما والاكتفاء بهما) ولكن فى الكف عن أعراض الناس » وما أحسن ما قاله الشاعر :

لقد صدق الباقر المرتضى سليل الإمام عليه السلام
بما جاء في بعض أقواله قبيح الكلام سلاح اللئام

ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستفتيه فى أمر ، فلما خرجت قالت عائشة رضى الله عنها :

« يارسول الله ماأقصرها » فقال :

﴿ مهلاً إياك والغيبة ﴾

فقالت « يارسول الله ، إنما وصفتها بأمر هو فيها » قال :

﴿ أجل ولولا ذلك لكان قولك بهتاناً ﴾

أي ولكان العتب عليك أشد

وبالجملة فإن الغيبة مما حظره الإسلام. قالوا : إلا لمصلحة شرعية يتوقف تحققها على ذكر الآخر بعيوبه ، وقبيح أعماله : من ذلك أن يظلمك رجل

فتصف من ظلمه لولاة الامور كي ينصفوك منه . هذا في المصلحة الخاصة ، أما في المصلحة العامة فكأن يكون الرجل مجاهراً بأعمال منكرة ، أو مزاعم باطلة ، ينشأ عنها فساد أو فتنة ، فلك إذ ذاك أن تصف من أعماله وسوء مقاصده ، كي يساعدك الحكام ، أو الرأي العام ، على تدارك امره ، وكف شره . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أترعون عن ذكر الفاجر أن تذكروه ؟ اذكروه بما يعرفه الناس ﴾

قوله (أترعون) اي تتورعون وتتحرجون ، فهو مشتق من الورع و (الفاجر) المستهتر في ارتكاب المناكر ، ولكن على العاقل ان يعرف كيف يذكر هذا الفاجر وكيف يتوصل الى كف شره ومنع اذاه عن الناس ، وإلا كان السكوت اسلم ، وانتظار الفرص افضل واحكم

و (النميمة) أخت (الغيبة) الشؤمى وقلما ذكرت الا مقترنة بها . وحد (النميمة) ان تنقل الى الناس من أقوال شخص أو أحواله أو اخباره ما يسوءه او يفضحه ، او يفسد عليه امراً دبره ، او مصلحة يحاول قضاءها . ولا يخفى ما ينتج عن انتشار هذه الخصلة الذميمة في الناس من الفساد والشر وتباغض الأحباء ، وتقاطع المتعاهدين على الصفاء والوفاء . ومن ثم كانت النميمة منافية للإسلام ، مجانبة لاخلاقه العامة التي حض عليها الشارع عليه الصلاة والسلام من ذلك قوله :

﴿ ليس مني ذو حسد ولا نميمة ﴾

﴿ إن أبغضكم الى الله المشاؤون بالنميمة . المفرقون بين الإخوان الملتمسون للبرآء العثرات ﴾

قوله (الملتمسون) الخ أي الذين يبحثون عن هفوات يلصقونها بالابرياء

الغافلين كي يؤذوهم ويُفسدوا عليهم امورهم . وعاب القرآن مَنْ هـذا خُلقه فقال تعالى :

﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾

و (النّميمةُ) فيما شاع من معناها لا تتعدّى نقل أخبار الناس بعضهم الى بعض . أمّا التجسُّسُ ويُسمّى السعاية أيضاً فإنه يُطلق في الغالب على نقل أخبار الناس الى ذوي السلطة والحكم الذين يملكون الإيقاع بهم أو مصادرة أموالهم أو تغريبهم . وهذا الضربُ من النمائم أفحش أنواعها ، وأشدّها ضَرَراً . وقد نهى القرآن عنه فقال تعالى :

﴿ ولا تجسَّسُوا ﴾

ويقال للساعي المتجسّس (قلاّع) لأنه يأتي الرجل المتمكّن عند الامير فلا يزال يقع فيه ويَروي للأمير من عيوبه ومساويه . حتى يقلعه ويحلّ محلّه . وإنما كان إثم المتجسّس عظيماً لأنه يعمد الى أناس ابتلوا بزلاّتٍ أو هناتٍ ارتكبوها واستخْفَوْا بها عن أعين الناس خوفاً من الله أو رهبةً من الحكّام فلا يزال ذلك المتجسّسُ يدأب ويسعى حتى يقع على خبرهم ، ويهتك الستر عن مكتوم أمرهم ، ثم ينقل ذلك الى الحُكّام . وهذا لا يجوز في الاسلام كما سمعت . ولأن أسرارهم هذه التي تكون في بيوتهم كسرائرهم التي تكون في صدورهم ، والشارع قد نهى عن تتبّعهما كليهما . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إني لم أُؤمَرَ أن أُنقّبَ عن قلوبِ الناسِ ولا أشُقّ عن بُطونهم ﴾

يعني بذلك سرائرهم ، وبواطن أُمورهم . وإنّما لوليّ الامر الظاهرُ من الأُمور . وقد أمرَ القرْآن بعدم تصديق هؤلاء المتجسّسين إلاّ بعد التثبّت وشدّة الفحص الذي في تركه وإهماله فساد وضياع المصالح العامّة قال تعالى :

﴿ إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنوا ﴾

فسمّى الجاسوس (فاسقاً) وكفى بهذا خزياً . وكما قلنا فى الغيبة إنّها تجوز أحياناً صوناً للمصالح ودرءاً للمخاطر ولا تعود تسمّى غيبةً كذلك يُقال في النميمة والتجسُّس فإنهما قد يُلجأ اليهما أحياناً ولكن لا يكونان اذ ذاك مُحرَّمين ولا مسميين باسْمَى النميمة والتجسّس الممقوتين : كما إذا عرفتَ أنّ زيداً مثلاً يُدَبّر مكيدةً لعمرو يريد بها هلاكه أو فضيحتَهُ ، أو ضياع حقّه . فلا يكون من العدل السكوتُ عن ذلك وترك تبليغه لولاة الامور . هذا في المصالح الخاصّة أما ما يتعلّق بالمصالح العامّة والأمْن العامّ وفي أوقات الحروب والفتن فوُلاةُ الأُمور إذ ذاك مضطرُّون الى استخدام أُناسٍ ينقلون اليهم أسرار من يُريد بالامّة سوءاً ، أو بالوطن شرّاً . ومثل هؤلاء المخبرين كانوا يُسَمَّونَ فى زمن الخُلفاء (أصحاب الأخبار) ويسمُّونهم اليوم (البوليس السِّرى) أو (مأمور استخبارات) وكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعةٌ يبلّغونه أخبار المنافقين وما يدبّرونه من المكايد للمسلمين ، فيحتاط لهم ، ويفسد عليهم تدبيرهُم ومكرهم

ولكن إن جاز هذا النوع من التجسُّس والغيبة فلا يجوز أبداً أن يتولّى أمره ويستبدّ به مَنْ كان معرفاً بين الناس بالكذب ، وخُبث الطويّة ، والميل مع الهوى . بل يجب ان يكون (صاحبُ الخبر) حرّاً كريماً ذا قلب سليم وإخلاص متين ، فلا يزيغ عن الحقّ ويرفع لوليّ الأمر من أخبار الناس وأسرارهم الا ما في إفشائه مصلحة لهم ودفْع ضررٍ عنهم ، ونُؤكّدُ القول بأنّ تعرُّف أسرار الناس بواسطة (أصحاب الأخبار) لا يجوز الاّ في أوقاتٍ خاصة ، وعند قيام قرائن قويّة دالة على وجود دسائس ومؤامرات خفيّة فى البلاد يؤدّي الإغضاء عنها الى ضياع البلاد أو فساد امرها ، والاّ فان تتبّع الحاكم لعورات الرعيّة ، وبحثه عن أسرارهم الموهومة يُغيّر قلوبهم ، ويُبغضهُم بأميرهم .

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إنّ الأمير اذا ابتغى الرّيبةَ في الناس أفسَدهم ﴾

وقال بعض العلماء المتأخرين في تفسير قوله تعالى :

﴿ ومِنْ شَرّ النَّفّاثاتِ في العُقَدِ ﴾

إنّ (النَّفاثات) جمع (نَفّاثة) مبالغة في (نفّاث) كعلاّمات جمع (عَلاّمة) مبالغة في (علاّم) قال : و (النَّفّاث) أصله الساحر (ينفث) أي ينفخ نفخاً خفيفاً مع شيء من الريق على أدوات سحره ومُحْكَم عُقَدِه . والمرادُ بهم في الآية النمّامون والشقّارون [1] الذين يعمدون الى العلائق بين الاصدقاء المتحابّين . فلا يزالون يَرقُونها بكلماتهم الخلاّبة ، وينفثون عليها من سُموم وشاياتهم الكذّابة . حتى يُقطّعوها فتصبح الأقارب أجانب والأصدقاء أعداء . والاية المذكورة مما لَقّنه الوحيُ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأمّته يُعَلّمهُم بها كيف يستعيذون الى الله من شرّ النمّامين الذين يُشبهون السحرة في خَفيّ عَملهم ، ولطيف كَلِمهم . وربّما شهد لهذا التفسير ما رواه سيدنا أنس (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ كادت النميمة أن تكون سِحْراً ﴾

وإثمُ الغيبة والنميمة والتجسّس ودرجة الُحرمة فيها على مقدار ما ينتج عنها من الشرور والآفات والاضرار بالناس : فمنها ما يكفي فيه مُجَرّد التوْبة والاستغفار ، ومنها ما يحتاج فوق ذلك الى طلب الصفح وإصلاح الفاسد أو تعويض الخسار

---

(١) الشقار هو المحرّش بين الناس بقصد ايقاع الفتنة والعداوة بينهم

النفاق والرياء

النِّفاق ضدٌّ (الجهر بالحق)و(الأمانة) و (الاخلاص) . أمَّا نسبته الى الكذب فهو أخوه الأفسد ، وصنوه الأنكد . اذ هما معاً يرميان الى غَرَض واحد أعني تغيير الحقيقة الثابتة وتحويلها عن صورتها التي خلقها الله عليها . (فالكاذب) يُخبر بلسان مقاله عن وقوع أمرٍ ما ولا يكون واقعاً ، و(المنافق) يخبر بلسان مقالهِ تارةً وبلسان حاله تارةً أخرى عن أمرٍ يزعم أنه منطوٍ عليه وثابتٌ في نفسه ولا يكون ذلك واقعاً أيضاً . فالنِّفاق أعمُّ من الكذب : من جهة أنه يكون أحياناً بغير اللسان ، وأخصُّ منه لأنه لا يكون الا إخباراً عمَّا في القلب والنيَّة . و (الرِّياء) كالنفاق الاّ أنَّ أكثر استعماله فيما كان بلسان الحال لا بلسان المقال : فالمُرائي يُرِي أويخيِّل بمعونة سَمْتِهِ وملامحه وأطواره ودموعه أحياناً أنّه على خير في نيّتهِ وعمله وسائر تصرُّفاته وهو على نقيض ذلك .

وللنِّفاق شَبهٌ بالخيانة . ويُفرَّق بينهما بأن (الخيانة) رجوع عن إنفاذ عهدٍ عاقدتَ عليه غيرك ثم يعلمُ ذلك الغير أنَّك نقضتَ عهده ، فيغصب عليك ثم يستريح .أمّا (النِّفاق) فهو خيانة متكرّرة متجدّدة تُفسدُ في الأرض الى ماشاء الله : اذ أنّك في إيهامك الآخرين وإقناعك لهم زوراً وبهتاناً بحسن حالك وطيب سريرتك تكون كأنك قد عاهدتهم على الثِّقة بك ، والاعتماد عليك . ثمّ لا تُعلنُهم نقضَ العهد فتبقى خائناً لهم إلى ما لا نهاية . ويَبْقون هم مخدوعين بك زمناً يطولُ ويقصُرُ بحسب مهارتك وغباوتهم ، وشدّة مكرك وحسن طويتهم . أفبعد هذا نعجبُ اذا رأينا الوحيَ الالٰهيَّ لم يحمل على خُلُقٍ من مساوي الأخلاق حَملتَهُ على النِّفاقِ ، ولم يتوعّد على مُنْكَرٍ كما توعّد عليه

حتى جعل دركة أصحابه في دار العذاب تحت دركة الجاحدين . مذ قال تعالى :

﴿ إنَّ المُنافِقينَ في الدَّرْكِ الأسْفلِ منَ النار ﴾

وذلك كلّه لما للنّفاق من قبح الأثر . في إفساد حال البشر . وإن الناس العائشين في نفاقٍ تراهم في نهارٍ من ظواهرهم ، لكنهم في ليلٍ دامسٍ من بواطنهم . تحسبهم أيقاظاً في أحاديثهم ، وإنّما هم رُقود في هِمَمِهم ، نيام عن خدمة مصالحهم . وهكذا يقضون أعمارهم في الغفلاتِ والتّعلاّت ، والأماني الباطلة والمواثقات الكاذبة ، حتى يقضي الله عليهم بأمره ، وينفذ فيهم سنته المطّردة في خلقه

أشرنا آنفاً الى أنَّ النفاق إيهام الناس أنك على شيء يُرضيهم فيثنُون عليك أو يعقدون معك عهداً من أجلِ ذلك الشيء ، وتكون أنت في الواقع ونفس الأمر مُبطناً خلافه

و (النِّفاق الديني) أن يستسرّ المرء غير ما يُظهر من أمر دينه . وشناعة ذلك ظاهرة لا تحتاج الى بيان . أمّا النِّفاق الآخر الذي يصح لنا أن نسمّيه (النفاق الاجتماعي) فهو أن يُظهر المرء من نفسه أمام النّاس أنَّه على علمٍ جَمٍّ ، أو أخلاق حسنة ، أو أعمال صالحة ، أو مساعٍ في خدمة وطنه وقومه مبرورة . وإذا كلّفُوه الاتفاق معهم على أمرٍ جامعٍ من المصالح العامّة والمشاريع الخاصّة أظهر موافقتهم والارتباط معهم ، وهو ينوي في باطنه مخالفتهم بل معاكستهم أحياناً . وقد يقف مع آخرين غيرهم هذا الموقف الخلّاب ، ثم مع آخرين وآخرين فيكون مع الكل وليس هو الاّ مع نفسه ، ويبقى كذلك حتى يشتهر أمرُه ، ويقترن بالمذمّة ذكره

و (النّفاق الاجتماعي) كثير الحصول في الشّعوب التي تنحطُّ في تربيتها الدينيَّة والاجتماعيّة ، وصاحبه وان لم يُعتبر خارجاً عن الملَّة بالمرَّة ولم يكن في

الدرك الأسفل من النار لكن له من دركاتها وعذابها على قدر الآثار السيئة التي تنشأ عن نفاقه ، والمضرات التي تلحق الناس من خديعته وخلابته

وقد وصف القرآن الكريم أرباب النفاق فقال تعالى :

﴿ يقولونَ بأفوَاهِهِمْ ما ليْسَ في قلوبِهمْ ﴾

ومن الآيات التى تكاد تكون صريحةً في وصف النّفاق الاجتماعي قوله تعالى :

﴿ ومنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجبكَ قَوْلهُ في الحياةِ الدُّنيا ، ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبهِ ، وهو ألدُّ الخصام . واذا توَلَّى سَعى في الأرضِ ليُفْسِدَ فيها ، ويُهلِكَ الحرْثَ والنَّسْلَ . واللهُ لا يُحِبُّ الفَساد »

نزلت هذه الآية في منافقٍ خاصٍّ ، وقيل فى المنافقين عامّة . وقال محمد ابن كعب القُرَظي وهو من كبار التابعين : إنّ الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامةً بعدُ . وقد طبَّقَ هذه الآيةَ بعضُ علماءِ السلف على ما وَرَدَ في كتب القُدماء وهو : « إنَّ لله عباداً : ألسنتُهم أحلى من العَسَل ، وقلوبهم أمرُّ من الصبر . لبسوا للناسِ جُلودَ الضأن من اللّين ، ليَجرُّوا الدنيا بالدِّين » وعلى هذا فإن الآية تشمل فى عمومها اولئك الذين يتظاهرون فى مجالسهم مع الناس بحبّهم لعمران بلادهم ، ورغبتهم فى إصلاح شؤون الحياة السياسية والاجتماعيَّة فيها ، ويؤكّدون أقوالهم بأغلظ الايمان ، ويكونون هم فى الباطن مُبغضين لكلّ إصلاحٍ اجتماعي ، معاكسين لكل مشروع خيري أو عمراني . بدليل أنهم إذا قاموا من مجالسهم الى ممارسة أعمالهم كانت مساعيهم منصرفة الى تخريب البلاد ، والتمويه على العباد . والله تعالى لا يحبُّ من كان هذا دأبهُ من أهل النفاق والفَساد

أما الأحاديث الواردة فى ذمّ النفاق والمنافقين والكشف عن مساويهم ،

ووصف علاماتهم ، فكثيرة . منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أَرَى الناسَ فوقَ ماعِندَه من الخَشْيةِ فهو مُنافِقٌ . ﴾

المراد بالخشية الخوف من الله ، والتورّع عن المحارم : يتظاهرُ بذلك تظاهراً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامةِ مَن يُرِي الناسَ أنَّ فيه خيْراً ولا خَيْرَ فيه ﴾

﴿ إنَّ الله حرَّم الجنّة على كلّ مُراءٍ ﴾

﴿ أخافُ على أمَّتي زَلّةَ العالِمِ ، وجِدالَ المنافِقِ ﴾

وقد غلا بعضُ الشعراءِ فجعلَ أناسَ زمانه كلّهم منافقين مذ قال :

(جميعُ النّاس خدّا عٌ الى جانب خدّاعِ)
(يعيشون مع الذئبِ ويبكون مع الرّاعي)

ولما كانت خصلة النفاق من شرّ الخصال وأسوئها أثراً نرى أهل الفضل والنبْل يتأبَّونها ويأنفون من الوقوف مواقفها . وقد نرى بعض المتورّطين فيها يعتذرُون أحيانا بأنهم إنما قالوا ما قالوا تقيَّةً وتخلُّصاً من أذى يُصيبهم من ذوى الحكم والسُّلطان . والحقّ أنَّ للتقيّة مواطن خاصّة ، وقرائن راهنة . قد تشفع لبعض الناس فيما يقولون ، لكنّها قليلة جداً ربّما لا تعرض للمرءِ في عمره سوى المرّة أو المرّتين ، مع أنَّ هؤلاءِ المنافقين ينافقون في مجالس العظماء مراراً وتكرارا . ولا نرى للظلم ولا للإكراه قرائن وآثارا . على أن مدّعي التقيّة كان يسعهُ السكوت أو التورية في الجواب فانَّ ذلك كاف في ارضاءِ الظالم وصدّه عن الأذى .

ومّما ينبغي التنبيهُ إليه ، والتَّحذيرُ من غوائله من ضروب النفاق والرّياءِ نفاقُ أولئك الذين يتصدون لتربيـة الأحداث وتهذيبهم ، ووعظ أبناء الأمّة

وإرشادهم : فانّ الرّياء والتصنع من هولاء ومخالفة أعمالهم لأقوالهم تُفسد قلوب الموعوظين وتحملهم على الاستخفاف بأوامر الدين وتجرّئهم على ارتكاب الآثام ، واستحلال الحرام . وإنّ الوعظ لا يُثمر ثمَره الطيّب مالم يقترن به عمل الواعظ. والتزامه بنفسه ما وعَظ غيره به وحضَّه عليه . فليحذر المربّي المؤدّب هذا الأمر من نفسه . ولا يفعل فعل ذلك الواعظ الذى سَرَق الدجاجة ثم قام يخطب في الشعب ويحضُّهم على ممارسة الخير والفضيلة والعفَّة عمَّا في جيوب الناس وإذا بالدجاجة تقرقر في جيبه ، وترفع عقيرتها بالإشهاد على ذنبه . فهل يكون لوعظ هذا الواعظ قيمة أو تأثير في النفوس! ولا يحسبن المُعلّم أو المُربّي أن الطفل الصغير لا ينتبه الى ما كان من خِلابة معلّمه أو مربّيه وريائه ومخالفة باطنه لظاهره . فانّ في هؤلاء الصغّار من الحسّ وقوّة الشعور ما يُساعدهم على إدراك ذلك والانتباه اليه بسرعة . ومن مارس شؤون التربية وراقب أخلاق الأطفال وقواهم النفسية المختلفة وافق على ما قلنا